AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A. U B. LIBRARY

عبقرية المسيح

عباس محمود العقاد

كتاب اليوم

الثمن ١٠ مـ

232.901
A655a A
c.1

عبقرية المسيح

عباس محمود العقاد

كتاب اليوم
يناير ١٩٥٣

الباب الأول
المسيح فى التاريخ

Li55-22030

« الله نور السماوات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجة كانها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم »

سورة النور

« وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا اكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده »

سورة الانعام

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون »

سورة النحل

« والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين »

سورة التين

« فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا »

سورة عبس

هذه هى الشجرة المباركة فى التنزيل : شجرة الزيتون ، شجرة البحر الخالد ، شجرة الحوض الذى نبتت عليه حضارة الانسان ودارت حوله ، ولاتزال تدور .

عالية تعلو خمس قامات وتزداد
باقية تبقى خمسة قرون ، ثم لا تصير الى نفاد

كريمة تؤتى من ثمراتها ماتشتهيه الأنفس وتشتهى به طيب الطعام ، سعيدة تؤتى من عصيرها النور والطب ومسوح الاهاب وجبائر العظام ، من خشبها صور المحاريب وأعواد المنابر ، ومن ورقها أكاليل الابطال وتحيات البشائر ، وتتشابه بركتها على الابطال الأقدمين فيتمسحون بطيبها طلبا لقوة النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون، وتتشابه بركتها عليهم كرة أخرى فهم يعلنون السلم ، ويرفعون غصن الزيتون !

بوركت فى وحى المعابد والضمائر ، وبوركت فى رموز القرائح والخواطر ، فلم يعرف الناس امنية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها ، ولم يذكروا نعمة لايذكرونها بنعمائها : رمزوا بها الى الضياء ، ورمزوا بها الى السلام ، ورمزوا بها الى الخير والرخاء ، وتزودوا منها فى البادية والحاضرة ، وأدخروها للدنيا والآخرة ، واتخذوها للمصابيح فى محاريب الصلاة والتسبيح ، ورجعوا اليها باسم من أقدس الاسماء ، هو اسم « السيد المسيح »

لأمر مانبتت فى فلسطين ، وانتشرت منها فى منابت العالمين ، وعلى نحو من هذا وهبت مسحتها للرسول الامين ، فطافت رسالته حيث طافت ، من عليين الى غايتها من البلاغ المبين

ولو لم تكن « للزيتونة » الا أن هذا الاسم المبارك مردود الى مسحتها وبركتها ، لاستحقت به الخلد المصون ، خضراء على مدى السنين والقرون .

يدل علم المقارنة بين الاديان على شيوع الايمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص فى زمن مقبل ، وظهر من عقائد القبائل الحمر فى القارة الامريكية ان القبائل التى تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة فى الامريكتين ، وليس فى هذا عجب . لأن الرجاء فى الخير أصل من أصول الديانة ، والأمل فى الصلاح مادة من مواد الحياة الانسانية يبثها الخالق فى ضمير خلقه ، ويفتح لهم بها سبيل الاجتهاد فى طلب الكمال والخلاص من العيوب

وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة اليه ، فكان المصريون الأوائل يترقبون «المخلص» المنقذ بعد زوال الدولة القديمة ، وروى برستيد عن الحكيم ابيور (fpuwer) ان المخلص الموعود « يلقى برداء على اللهيب ويتكفل برعاية جميع الناس ويقضى يومه وهو يلم شمل قطعانه » (١)

وقد كان البابليون يؤمنون بعودة « مردخ » الى الارض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد ، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من اله النور كل ألف سنة ينبعث فى جسد انسان ، وقيل انه هو زرادشت رسول المجوسية الاكبر الذى يرجعون اليه بتفصيل الاعتقاد فى اله النور واله الظلام ، وقد تخلفت هذه العقيدة الى ما بعد اليهودية والمسيحية والاسلام وأشار اليها الجاحظ وهو يتكلم عن أستاذه ابراهيم بن سيار النظام حيث قال : « ان السلف زعموا ان كل ألف عام يظهر رجل لانظير له ، فاذا صدق هذا الزعم كان النظام هذا الرجل للألف عام هذه »

(١) صفحة ٧٩ من كتاب نور من الشرق القديم لمؤلفه جاك فنيجان

اما الايمان بظهور رسول الهى يسمى « المسيح » خاصة فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو التعليقات عليها ، فى التلمود والهجادا وماإليها

ومرجع التسمية نفسها الى الشعائر التى وردت فى سفر التكوين وسفر الخروج ومايليهما من أسفار الانبياء . فان المسح بالزيت المبارك شعيرة من شعائر التقديس والتكريم ، وأول ماورد ذلك فى الاصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين حيث روى عن يعقوب انه « بكر فى الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت راسه وأقامه عمودا وصب زيتا على راسه ودعا ذلك المكان بيت ايل - أى بيت الله »

وجاء فى الاصحاح الثلاثين من سفر الخروج ان « الرب كلم موسى قائلا : . . وانت تأخذ افخر الاطياب .. دهنا مقدسا للمسحة .. وتمسح به خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة والمائدة وكل انيتها والمنارة وآنيتها ومذبح البخور ومذبح المحرقة . . وتقدسها فتكون قدس اقداس ، وكل مامسها يكون مقدسا ، وتمسح هارون وبنيه وتقدسهم .. »

وكان الأحبار والانبياء يسمون من أجل هذا مسحاء الله وتنهى التوراة عن المساس بهم كما جاء فى الاصحاح السادس عشر من سفر الايام : « لاتمسوا مسحائى ولاتؤذوا أنبيائى »

وكان مسح الملوك أول شعائر التتويج والمبايعة فكان شاءول وداود من هؤلاء المسحاء

ثم أطلقت كلمة « المسيح » مجازا على كل مختار ومنذور ، فسمى كورش الفارسى «مسيحا» كما جاء فى الاصحاح الخامس والاربعين من سفر اشعيا ، لان الله اخذ بيده لاهلاك اعداء الاسرائيليين واقامة بناء الهيكل من جديد ، وسمى الشعب كله مسيحا كما جاء فى المزامير وكتاب النبى حبقوق ، ومنه « خرجت لخلاص

شعبك : خلاص مسيحك «بمعنى الشعب المختار

وتكررت فى كتب « الهجادا »أو كتب التعاليم الاشارة الى الرسول المنتظر باسم المسيح ، فتارة يطلق هذا الاسم على يوسف وتارة على موسى عليهما السلام ، ولا يزال المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحا فى صورة رسول هاد او صورة شعب مبرور ، لانهم لا يدينون برسالة عيسى ابن مريم عليهما السلام

وقد كان الايمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل الاول ، فردد الشعب الاسرائيلى وعود أنبيائه بعودة الملك الى أمير من ذرية داود نفسه تخضع له الملوك وتدين الامم لسلطانه ، ثم ترقى الايمان « بالمسيح » بمعنى الملك الى الايمان بالمسيح بمعنى المختار أو المنذور للهداية والصلاح ، وبلغ هذا التحول غايته فى بعض النبوءات ومنها نبوءة اشعيا التى امتازت بتكرار هذه الوعود ، فمن وصف القوة والبطش والصولة والصولجان ، الى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكاره فى سبيل التحذير والتبشير ، وقد جاء فى الاصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظر انه « محتقر ومخذول من الناس ورجل أوجاع وأحزان » . . وجاء فى الاصحاح التاسع من سفر زكريا أنه «عادل ومنصور وديع يركب على حمار ابن أتان » . . . واتفقت أقوال كثيرة على انه يأتى مسبوقا برائد يعلن مجيئه ، وهو النبى ايليا (الياس) منبعثا من الأموات

وقد كان هذا الارتقاء فى فهم الرسالة المسيحية بصاحب اطوار الشعب الاسرائيلى فى تاريخه المتعاقب ، فيقوى الرجاء فى المسيح الملك كلما ضعفت الدول المسيطرة على فلسطين وهان خطب الثورة عليها وتعاظم الأمل فى استقلال رعاياها ، ويعود الرجاء الى « المسيح الهادى » كلما استحكم سلطان الغالبين وبدا أن

الأمل فى الخروج عليهم بقوة السلاح بعيد عسير ، وهكذا تراوح تفسير الرسالة المنتظرة بين رجعة الدولة وبعثة الهداية على حسب أطوار التاريخ ، فلما دخلت فلسطين فى حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد وأخذ الأمل فى قيام الدولة يتضاءل ويخلفه الأمل المتتابع فى انتظار الرسول المخلص والبعثة الروحانية ، اقترن هذا التحول بظاهرتين تصطحبان حينا وتفترقان بل تتناقضان جملة أحيان . فعظم سلطان الهيكل وكهانه حين تحول السلطان القومى كله اليهم وأصبح هذا السلطان ملاذ المتطلعين الى كل رئاسة قومية تصمد للدولة الاجنبية ، ومن الناحية الاخرى جنحت الضمائر المتعطشة الى اليقظة الروحية جنوحا متمردا على القديم مؤمنا بانتظار البعث من غير جانب « الهيكل » وبقاياه وما جمد عليه مع الزمن من الموروثات والمأثورات

فلما بلغ الكتاب أجله وحانت البعثة المرقوبة كان المعسكران متقابلين متحفزين على استعداد

النبوة بين بنى إسرائيل

من تمام العلم باستعداد عصر الميلاد لدعوات النبوءة أن نلم بأحوال النبوءة في الشعب الاسرائيلي منذ تكاثر عدده وتنوعت أعمال الرئاسة والتعليم بين قبائله واسباطه ، فان أحوال النبوءة في ذلك الشعب لم تكن على الصورة التي تسبق الى خواطرنا من النظر في تواريخ كبار الانبياء ، وتواريخ الفترات التي مضت بين ظهورهم في الأمم المتعددة

فنحن اليوم نستهول دعوة النبوءة ونعلم عن يقين أن الذي يقدم على ادعاء النبوءة في عصرنا هذا يقدم على خارقة مستغربة ويعرض نفسه لاتهام المتدينين قبل المنكرين والملحدين ، لأن اتباع الاديان يؤمنون بختام النبوءات أو يؤمنون بأن النبي الجديد ينتقص عقائدهم ويزعم لنفسه ان يعلمهم مالم يعلم من كتبهم واقوال أنبيائهم ، اما المنكرون والملحدون فهم لا يقبلون دعوى النبوءة في هذا العصر ولا في غيره من العصور

ونحن اليوم نعلم أن الفترة بين ابراهيم وموسى وبين موسى وعيسى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم قد طالت حتى حسبت بمئات السنين ، ففي اعتقادنا على الدوام أن ظهور الانبياء حادث جلل لا يتكرر في كل جيل ولا يراه الانسان في عمره مرتين

ونحن اليوم نعلم من تواريخ كبار الأنبياء أنهم اقدموا على مصاعب تخيف المقدمين عليها وشقوا بدعوتهم طرقا لا يسهل تذليلها ، لانهم حطموا آلهة وسفهوا أحلاما وغيروا العقائد التي درجت عليها الأمم عصورا بعد عصور ، واقاموا عليها سلطان ذوي السلطان كما أقاموا عليها شرائع الحاكمين والمحكومين . كذلك صنع محمد وكذلك صنع موسى عليهما السلام ، فمن تولى الهداية الى دعوة على هذا النحو فهو متعرض للعدوان والبغضاء

مقتحم على الناس طريقا لا يقبلون اقتحامه من أحد ، ولا يرون أحدا يقتحمه عليهم الا اعنتو، واقاموا له العراقيل

أما أحوال النبوة فى بنى اسرائيل فينبغى أن نتصورها على غير هذا النحو لأنها تخالفه من جملة وجوه

فأول ما هنالك من الفوارق أن الانبياء فى بنى اسرائيل لم يكن وجودهم ندرة ، ولم يكن بينهم فترة ، أو لم يكن حتما لزاما أن تكون بينهم فترة ، فقد يوجد منهم فى العصر الواحد أربعمائة نبى كما جاء فى سفر الملوك الاول حيث جمع ملك اسرائيل « الانبياء نحو أربعمائة رجل وسالهم اأذهب الى رامة جلعاد للقتال ؟ »

وخير ما ورد فى وصف مكان الانبياء بين بنى اسرائيل قول النبى (محمد) صلوات الله عليه :« علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل »

فقد كان عمل النبى فى شعب اسرائيل كعمل العالم الفقيه فى الأمة الاسلامية ، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بهم الخاصة أو العامة فى وقت من الاوقات ،ولم يكن قيامهم انكارا لقيام الانبياء من قبلهم ، بل هو تفسير للكتب والنذر وحض على اتباع السنن التى رسمها لهم من قبل ابراهيم وموسى ويعقوب وغيرهم من الانبياء السابقين ، بل كانوا يعلمون من كتب العهد القديم أن الله وعد اسرائيل « أن يقيم أنبياء مثله ويجعل كلامه فى أفواههم (١٨ تثنية) وان بعض هؤلاء الانبياء قد يتحدث الى الناس بكلام غير كلام الوحى فعليهم أن ينبذوه » .. « وان قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فاعلم ان ما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهذا كلام لم يتكلم به الرب .. فلا تخف منه »

بل يجوز أحيانا أن تصدق الاقوال والعلامات ولا يجوز

للشعب أن يستمع الى وصايا الانبياء اذا دعوه الى عبادة رب غير اله اسرائيل ... فاذا قام فى وسطك نبى أو صاحب رؤيا وأعطاك آية أو اعجوبة .. فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو صاحب الرؤيا أن دعاك الى عبادة آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ولو صدقت الاعجوبة أو الآية ...(١٣ تثنية)

ولم تكن النبوءة باذن من ذوى السلطان أمراء كانوا أو كهانا أو شيوخا مطاعين فى القبيلة ، بل يمتلىء يقين الانسان بالايحاء اليه فيمضى فى تبليغ وحيه ولا يقوى أحيانا على كف لسانه كما قال ارميا : « قد أقنعتنى يارب فاقتنعت وألححت على فغلبت . صرت ضحوكة وهزءا .. كلما الرب جللتنى بالعار والسخرية .. فقلت لا أذكره ولا أنطق باسمه بعد ، فكان فى قلبى كأنه نار محرقة محصورة فى عظامى .. فلم تكن لى طاقة باسكوت » (٢٠ أرميا)

وكثيرا ما كان النبى ينحى على زملائه فى عصره ويخالفهم فى تفسير النذر من ربه ، كما قال ارميا « من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق الى الارض كلها ... فلا تسمعوا كلام الانبياء الذين يتنبأون لكم فانهم يبطلون عملكم ويتكلمون برؤيا قلوبهم »

أو كما قال ميخا لملك اسرائيل: « هو ذا الرب قد جعل روح كذب فى أفواه جميع أنبيائك هؤلاء »

قال هذا فتصدى له صدقيا بن كنعانة « وضرب ميخا على الفك وقال له : من أين عبر روح الرب منى ليكلمك »

وكان المعهود فى الانبياء كما روت كتب التوراة أن يطلب انبياء اسرائيل حالة الكشف كما يطلبها المتصوفون والنساك فيما علمناه من أخبارهم المتواترة ، فمنهم من يصوم ويتهجد ويمسك عن فضول العيش ويلتمس المنازه والانهار كما قال دنيال : « لم آكل طعاما

شهيا ولم يدخل فى فمى لحم ولاخمر ولم ادهن حتى تمت ثلاثة أسابيع ، وفى اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول اذ كنت الى جانب النهر العظيم دجلة رفعت عينى ونظرت »

بل منهم من كان يستعين بالسماع ليشعر بصفاء الروح ويستلهم الغيب كما جاء فى سفر صمويل الاول : « انك تصادف زمرة من الانبياء يهبطون من الأكمة أمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون فيحل عليك روح الرب (٩ صمويل أول)

أو كما جاء فى سفر الملوك الثانى : « فقال اليشع حى رب الجنود .. الآن فأتونى بعواد .. فلما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب »

ولكن الأغلب مع هذا أنهم كانوا يرتادون الخلوات وينقطعون فى جوانب الانهار « عند نهر خابور انفتحت فرايت رؤى الله » (١ حزقيال)

ولا يمتنع عندهم أن يلهم الله بالرؤيا الصالحة أو الدليل البين انسانا من غير الانبياء ومن غير شعب اسرائيل كما ألهم ابيمالك وبلعام ، ولكنهم يلهمون ليعرفوا بأنفسهم حق الانبياء والمرسلين

وكان الغالب على سامعى النبوءات أن يطلبوا آية يعلمون بها أن المتكلم ينطق بوحى من الله ، ولكن طلب الآية لم يكن عندهم دليلا على اليقين والايمان ، وربما أذن للنبى أن يطلب الآية ويمعن فى طلبها فيرى من الأدب ألا يجرب ربه بدليل هذه الآيات (٧ أشعيا)

على أنهم كانوا يلجأون الى الانبياء يستشيرونهم قبل الحرب أو الرحلة أو الاقامة لعلمهم أنهم أقرب الى الله وأدنى أن يطلعوا على الغيب المحجوب عن أنظار الدنيويين المنغمسين فى هموم الحياة ، ومن هؤلاء الانبياء من كان يستمع الوحى صوتا عاليا ومن كان يحسه الهاما أو هداية أو رؤيا صالحة ، وغالبا ما كانوا

يقصرون رسالتهم على التذير بالعقاب كلما خرج الشعب عن سنة الاقدمين وانحرف عن سواء العبادة كما تلقاها آباؤهم من الانبياء السابقين ، فلم تكن النبوة اقتحاما ولا بدعة مستغربة، ولم يكن فيها خطر على النبى الاحين يتصدى للملوك والأمراء فيأخذ عليهم مخالفة الشريعة أو مخالفة المأثور عن السلف ومن هؤلاء الملوك والأمراء من كان يعمد الى التنكيل بالنبى فى هذه الحالة ليثبت للناس كذبه وانه لم يأت من عند الله ، اذ كان موت النبى الكاذب احدى العلامات على بطلان دعواه

ولعلنا نصف الحالة حق وصفها حين نقول ان القوم كانوا يبحثون عن الأنبياء ، ويترقبونهم ولا يعتبرون ظهورهم خارقة يستهولونها أو يستغربون تكرارها ، وان الزمان المتهيىء للنبوة كان يخشى أن يسكت عن الدعوة متى جاشت ضمائره بحوافزها والحت عليه اياما بعد ايام، حتى يصبح السكوت فى حكم سريرته عصيانا لأمر الله ونكولا عن ارادته ، ومتى استقر فى سريرته أن طلب الآية تجربة لله وضعف فى الايمان فأسلم الأمور عنده حين تجيش به برى الله أن ينذر ويبشر ، وعلى الله بعد ذلك أن يثبت نبوته وأن يهديه ويهدى الناس اليه كما يشاء

وفى عصر الميلاد ذلك العصر الذى ترقبت فيه النفوس بشائر الدعوة الالهية من كل جانب كما يترقب الراصدون لوكبا حان موعد طلوعه - لاجرم تتفتح الآذان لصوت المبشر الموعود ، ولا جرم كذلك أن يكون البرهان المطلوب منه على قدر الرجاء فى الخير المنتظر ، وأن يمتحنه الناس فيعسروا غاية العسر فى امتحانه، خوفا من سهولة الدعوى على الادعياء ، وخوفا من بطلان الرجاء فى ابان اللهفة على الرجاء ، فهو رجاء عظيم يعلقه المرتجون على برهان عظيم .

الطوائف اليهودية
في عصر الميلاد

كان العالم اليهودى فى العصرالذى ولد فيه السيد المسيح يشتمل على طوائف مختلفة ، لكل منها مذهبه فى انتظار المسيح المخلص الموعود

والتعريف بهذه الطوائف ضرورى لتقرير مكان العقيدة الجديدة بين العقائد التى سبقتها فى بيئات بنى اسرائيل

وضرورى من جهة أخرى لانه - فيما نرى - أقوى دليل يرد به على الناقدين المحدثين الذين ظهروا منذ القرن الثامن عشر وجمحت بهم شهوة النقد والتشكيك حتى جازوا الشك فى النصوص والروايات الى الشك فى وجود السيد المسيح نفسه ، كأنه فى زعمهم شخصية من شخصيات الاساطير . وتسقط دعوى هؤلاء الناقدين بمجرد الاحاطة بأصول المذاهب التى كانت معروفة فى عصر الميلاد، لان الدعوة المسيحية كانت تعديلا لكل مذهب من هذه المذاهب فى ناحية من نواحيه ، وكانت هذه التعديلات فى جملتها تثوب الى وحدة متماسكة من القواعد والمثل العليا ، لا بد لها من «شخصية» مستقلة عن هذه المذاهب جميعا، قادرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متناسق الفكر والايمان

ونكتفى من الطوائف الدينية التى كانت معروفة فى عصر الميلاد بخمس منها ، وهى طوائف الصدوقيين والفريسيين والآسين والغلاة والسامريين ، وكل طائفة من هذه الطوائف الخمس مهمة فى تاريخ العصر بمزية من المزايا التى تتوقف عليها قوة المذاهب الدينية

فالصدوقيون هم فى دعواهم أتباع « صدوق » واسرته الذين

تواترت الروايات بأنهم كانوا يتولون الكهانة فى عهد داود وسليمان

وكانت طائفتهم مهمه بمراكز اصحابها، لأنهم على الجملة أنصار المحافظة والاستقرار وأصحاب الوجاهة والثراء

وقد كانوا متشددين فى انكار البدع والتفسيرات . متشبثين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويقبلون أقدم الكتب التى احتونها التوراة وهى كتب موسى عليه السلام، ويرفضون ما عداها ولا سيما المأثورات المنقولة بالسماع

وتدعوهم المحافظه على النظام القائم الى مسلك يناقض عقيدتهم فيما هو ظاهر من لوازمها . فقد كانوا أقرب اليهود الى الأخذ بالحضارة اليونانية وعادات المعيشة فى البيئات الرومانية ، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب الفلسفية كمذهب أبيقور كما كان مفهوما فى ذلك العصر ، وقد كان الشائع عنه يومئذ أنه مذهب اللذة الحسية والمتعة بالترف والنعيم ، ولكنهم فى الواقع لا يناقضون سنتهم وسنة أمثالهم فى كل زمن ، فانهم يحافظون على نظام المجتمع لأنهم أصحاب اليد الطولى عليه ، ولهذا يحبون متاعه ونعيمه ويوفقون بينهم وبين أصحاب السلطان السياسى وقد كانوا يومئذ من اليونان والرومان، ويعلل لهم فى هذه النزعة أنهم يؤمنون بأن الكتب اليهودية الاولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة ، خلافا للطوائف الاخرى التى تؤمن بالبعث والحساب

وقد كانت الحملة على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين .وهما «حنانيا» و « قيافا » .. ولم يكن فى ذلك عجب . لان الصدوقيين جميعا يحافظون على سلطان الهيكل ويحافظون على النظام القائم أو لا يستريحون الى الثورة والانقلاب

وخلاصة الآداب الصدوقية انهم حرفيون فى مسائل الدين متوسعون فى مسائل المعيشة ،وانهم يعاشرون الاجانب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم ،لأن أعمالهم ومراكزهم متصلة بذوى السلطان

وتقابل الصدوقيين طائفة أخرى هى طائفة الفريسيين ، وهى أقوى من الطائفة الصدوقية بكثرة العدد وشيوع المبادىء والآراء ، وحسن السمعة بين سواد الشعب وعلية القوم الذين لا يخالطون الاجانب، وان لم يكن بين أفرادها كثيرون فى مرتبة الرؤساء والوجهاء

واسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تقارب كلمة «الفرز» العربية فى لفظها ومعناها ، فهم المفروزون أو المتميزون ، وخصومهم يطلقون عليهم هذا الاسم تهكما وتحديا لاعتقادهم انهم فرزوا أنفسهم عن السلف واعتزلوا طريق الجماعة الاولى . أما هم فقد كانوا يطلقون لقب الفريسيين أو المفروزين على أنفسهم ويردونه الى خطاب الله لبنى اسرائيل جميعا كما يروونه فى الاصحاح العشرين من سفر اللاويين ، فهناك يخاطب الله الشعب قائلا : « وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى » .. فهم عند أنفسهم المميزون المفضلون

لهذا كانت تلازمهم فى بعض الاحيان صفات الادعاء والتعالى التى تلازم كل طائفة تستأثر لنفسها بالمزية بين الطوائف الاخرى ، وكان بعضهم هدفا لحملات السيد المسيح تنديدا بما يظهرونه من الثقة والكبرياء

على أنهم كانوا يقابلون بهذه الكبرياء كبرياء الوجاهة والثروة التى كانوا يستنكرونها على خصومهم الصدوقيين ، وكانوا يثورون على السلطان «الرسمى» حيث كان فى الهيكل أو فى المراجع الاجنبية، فكانوا ينكرون على الكهان استبدادهم بالشعائر والمراسم ،

وينكرون فى الوقت نفسه عادات الاجانب والمتشبهين بهم محاكاة للحكام والمتسلطين

وقد كانت ثورتهم الاولى ثورة على البدع الاجنبية التى كانوا يرفضونها كل الرفض ولا يسامحون من يقبلها ، فلما أمر الملك « أنطيوخس » كاهن الهيكل أن يضحى فى مذبحه بالخنازير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد) قاموا قيامة رجل واحد وعرضوا أنفسهم للموت بالمئات والالوف كراهة لهذه البدعة النجسة ، وحدث فى عهد الرومان أن الوالى « بترونيوس » عجب من عنادهم فى مقاومة الدولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها ، فسأل زعماءهم : كيف يخطر لكم ان تحاربوا قيصر ولستم اكفاء لربه ، فقالوا نحن لانحارب قيصر ولا نزعم أننا أكفاء لقوته ، ولكننا نموت على بكرة أبينا ولا نخالف الشريعة ، وكشفوا رقابهم مستعدين لاثبات ما يقولون

ومن نقائضهم أن ثورتهم على استبداد الهيكل ورغبتهم فى تعميم الشعائر التى كانت محصورة فى المحاريب هى التى دعتهم الى اقامة هذه الشعائر فى البيوت بغير حاجة الى الكهان المرسومين ، ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا من كل بيت هيكلا مقدس المراسم ... فكانوا على ميلهم الى السماحة ومقاومة الاستبداد « الرسمى » أشد من المتشددين

الا ان الغالب عليهم حين يبتعدون عن الامور التى تتعرض لهذه النقائض انهم اقرب الى التصرف والقياس ، او أقرب الى تحكيم العقل فى مسائل النصوص والتقاليد ، فكان الصدوقيون مثلا يصرون على شريعة العين بالعين والسن بالسن ولا يقبلون الدية ، وكان الفريسيون على عكس ذلك يفضلون الدية والمسامحة على القصاص ، وكان الصدوقيون

أقرب الى المادية والقواعد العملية وكانوا هم أقرب الى الروحانية والآداب النظرية او آداب التأمل والتفكير ، وقد كان انكار البعث والحياة الروحية اشد ماينكرونه على خصومهم الصدوقيين ، ومن اجل هذا سبقوهم مراحل الى انتظار الخلاص أو انتظار المسيح المخلص فى عالم الروح ، غير مقيد بشروط الصولة والصولجان .

واذا وصف الصدوقيون على الاجمال بأنهم طبقة « الارستقراطيين » فالذين يستحقون وصف الديمقراطيين دون غيرهم من طوائف اليهود فى ذلك العصر هم الفريسيون .

وقد جاء عصر الميلاد وهم ينقسمون الى فريقين : فريق منهما يتبع الحكيم «هلل» الذى قدم الى فلسطين من بابل وهو الفريق السمح الودود فى معاملة الاجانب ، والفريق الآخر يتبع الحكيم «شماى» وهو اقرب الى التحرج والتضييق ورد الراغبين فى دخول الدين من غير اليهود ، وكان شعار هلل الاعتدال بين الزهد والمتاع وكلمته المأثورة « ان الزيادة فى اللحم زيادة فى الدود » .. وشريعته فى المعاملة ان الشريعة كلها كلمة واحدة وهى الا تصيب احدا بما تكره ان تصاب به ، وكل ما عدا ذلك من الاحكام المنزلة فهو تفسير وتفصيل ، واما الحكيم شماى فقد كان الاعتدال بين الزهد والمتاع اكثر مما يطيق ، وروى أنه كان يحترف النجارة ليعيش من كسب عمله ، وان غيرته على القديم كانت أقوى من اقباله على التجديد والتصرف فى تأويل النصوص .

والقول الراجح بين المؤرخين ان معلمى السيد المسيح فى صباه كانوا من طائفة الفريسيين .

***

والطائفة الثالثة التى تقل عن هاتين الطائفتين فى العدد كثيرا وتساويها أو تزيد عليها فى القوة والاثر هى طائفة الآسين او الاسينيين كما يكتبها رواة الاخبار عنها فى عصر الميلاد .

عددها كما قدره المؤرخ يوسفيوس والفيلسوف فيلون لا يزيد على اربعة آلاف يعيش اكثرهم فى جنوب فلسطين .

ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة ، وقد تكون دلالتهم اعظم من قوتهم ، لانهم طائفة من صميم الامة الاسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها واسرارها واوشكت ان تستقل عن « الهيكل » كله فى علاقتها بالدين والقومية ، ولولا انها تعترف بتقريب القرابين فى الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود ، ولكنها مع هذا تنكر ذبح الحيوان ولا تقرب القرابين من غير النبات .

واسم هذه الطائفة مختلف عليه ، ولكن الراجح من الاقوال المتعددة ان الاسم ماخوذ من كلمة « آسى » بمعنى الطبيب او النطاسى فى اللغة الارامية ، وهى تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية التى تعد اللغة الآرامية اقرب اللغات السامية اليها ، ومن المعقول ان يتسمى اصحاب هذا المذهب بالآسين لانهم كانوا يتعاطون طب الروح ويدعون ابراء المرضى بالصلوات والاوراد ، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير .

وقد نشات الطائفة على الاغلب بالاسكندرية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، واقتبست من المدارس الاسكندرية كثيرا من انظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية ، كمذهب فيثا غوراس الذى يحرم ذبح الحيوان ويدعو الى التقشف والقناعة بالقليل .

وكان حراما عند ابناء هذه النحلة ان يملك احدهم توبين او

زوجين من النعال او يدخر الامتعة والاقوات ، وكانت الرهبانية غالبة عليهم الا من اذن له بالزواج ويعفى من قيود النسك والبتولة .

وكانوا ينتظمون فى النحلة على ثلاث درجات . درجة التلمذة ويقبلون فيها الصبيان فيما دون الحلم ، ثم درجة المقسمين وهم الذين يقسمون اليمين ويقضون سنة فى الرياضة والتدرب على العبادة والاطلاع على الاسرار ، ثم ينقل المريد الى درجة الواصلين ويقضى فيها سنتين ، ثم يلبس شعار الطائفة وهو ثوب ازرق وزنار ويحمل الفاس فى يده ، كناية عن العمل الشاق ، ولهم بين المرحلة الاولى والمرحلة الثانية شعائر متواترة يقوم بها الاساتذة ، منها الاغتسال وتلاوة بعض العهود ، ويقسم احدهم مرة واحدة يمين الامانة والمحافظة على سر الجماعة ، ويحرم عليه القسم بالحق او الباطل مدى الحياة ، ويجوز فصل العضو بعد رسمه اذا حنث فى يمينه واتفق مائة من الاخوان على ادانته ، بل يجوز الحكم عليه بالموت اذا بلغ الحنث حد الخيانة والكفر بقواعد الايمان .

وهم يتطهرون من الحدث ، ويصلون عند الفجر ، ويحافظون على الراحة فى يوم السبت ، ومنهم من لا يستبيح فى ذلك اليوم ازالة الضرورات .

وليس بينهم رئاسة ولا سيادة ، والرق عندهم حرام ، وعملهم المفضل الزراعة والصناعة اليدوية . أما التجارة فهى فى مذهبهم عمل خبيث او غير لائق ، واخبث منها حمل السلاح للقتال .

والمادة عندهم مصدر الشر كله ، والسرور بها سرور بالدنس والخيانة ، وكان يغلب عليهم من اجل هذا وجوم الصمت والندم .

وكل ما يباح لهم من السرور فهو سرور الروح او سرور الاتصال بعالم الارواح ، وهو عالم سماوى فى اعلى الاثير يرتفع اليه المؤمن بالعبادة والرياضة والقنوت

وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين فى رحلاتهم ، وقلما كانوا يشاهدون فى المدن الآهلة بالسكان او فى الاحياء التى يرتادها القصاد للفرجة وازجاء الفراغ .

وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص ، معتقدون ان الخلاص بعث روحانى يهدى الشعب الى حياة الاستقامة والصلاح ، ورائدهم فى طلب الرضى من الله هو النبى عاموس الذى كان يعلم الشعب أن التقرب الى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب اليه بالذبائح والهدايا .

ولا يبعد ان يكون الغلاه او الجليليون أتباع يهودا الجليلى فرقة متطرفة من فرق الآسين ، لانهم يسلكون مسلكهم فى التقشف والقناعة ويزيدون عليهم بالحض على العمل لتحقيق النبوءات وتقريب يوم الخلاص ، وهم الذين ثاروا ونظموا العصابات فى السنة السادسة او السابعة قبل الميلاد وتمردوا على امر الاحصاء الذى صدر من « كرينياس » حاكم سورية واصبح اليهود بموجبه معدودين من رعايا قيصر ، أو عبيده الذين يدينون له بالسيادة . وحجتهم ان طاعة القيصر من عبادة الاوثان ، وان احصاء الشعب لاعتباره من عبيد القيصر مروق به من الديانة ولما رفع الملك هيرود تمثال النسر القيصرى فوق هيكل بيت المقدس ذهب اثنان من الغلاه اليه وانتزعاه عنوة وانذر اخوانهما من يعيده الى مكانه بالموت ، وقد ثار هؤلاء فى سنة الاحصاء بقيادة يهودا الجليلى ومات هو وابناؤه وذووه فى ابان الثورة ، وكانت الدولة الرومانية تحذر الفتنة فى هذه البقعة المتوسطة بين القارات

الثلاث ، فكانت تؤثر التقية والمداراة فى معاملة الثائرين ، ولا تأخذهم بالقمع والسطوة الا اذا ضاقت بها سبل الحلم والاناة .

***

والطائفة السامرية خليط من اليهود والاشوريين كانوا يقيمون فى مملكة اسرائيل القديمة ، يقال انهم قبائل أشورية ارسلها ملوك بابل الى فلسطين ليسكنوها فى أماكن القبائل اليهودية التى نفيت الى مابين النهرين وسميت من اجل ذلك بسبايا بابل ، ويقال انهم اختلطوا باليهود الذين بقوا فى بلادهم ولم تحملهم الدولة البابلية الى بلادها مع القبائل المسبية ، فوقع من هذا الاختلاط فى السكن والنسب اختلاط فى العادات والعبادات ، وعاد اليهود الذين رجعوا من السبى بعد سقوط بابل فانكروا من السامريين شعائرهم المخالفة لتقاليدهم واتهموهم بعبادة الاوثان ، ورفضوا مشاركتهم فى بناء الهيكل الجديد ، فعمد السامريون الى بناء هيكل خاص لهم فى جرزيم وجعلوا يتعمدون ان يدنسوا هيكل بيت المقدس ويحصروا القبلة فى هيكلهم ومثابة حجهم وعبادتهم ، وقد بقى منافسا لهيكل بيت المقدس زهاء مائتى سنة حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس حناهير كانوس قبل الميلاد بأكثر من مائة سنة ، ولكنهم اعادوا بناءه وظل قائما حتى هدمه الرومان بعد ثورة السامريين فى القرن الخامس للميلاد ، وقد هدم فسباسيان مدينتهم واقام على انقاضها مدينة سماها المدينة الجديدة « نيوبوليس » او نابلس المعروفة اليوم ، ولا تزال بقايا السامريين تحتفظ بتقاليدها وتعتمد على نسخة التوراة المكتوبة بلغتها ، ولا تعترف بكتاب بعد الكتب الخمسة التى تعرف بالكتب الموسوية ، ولا تدين بعاصمة مقدسة غير موطن هيكلها المهدوم جرزيم ، وقد استحكم العداء بين أصحاب الهيكلين فى عصر الميلاد حتى بطل الامان فى السفر

بين السامرة والبلاد الاخرى ، وتعرض للاهانة والنكال كل من خاطر بالسفر الى السامرة من يهود الجنوب او الشمال .

***

ومن المحقق ان هؤلاء السامريين كان لهم شأن فى تطور الفكرة المسيحية او فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود ، ويرجع شأنهم هذا الى النزاع القديم بين مملكة يهودا فى الجنوب ومملكة اسرائيل التى ورثها السامريون ، وهم ينتسبون الى يعقوب ويدعون انهم دون غيرهم الجديرون باسم « الاسرائيليين » .

فاذا اعتقد اصحاب مملكة يهودا فى الجنوب ان عاصمتهم ـ بيت المقدس ـ هى مقر الملك المنتظر ، وان هذا الملك المنتظر سيكون من سلالة داود فهذا الاعتقاد يرضيهم ويرد المجد الى دولتهم ويجعل الخلاص على ايديهم ، ولكن السامريين ابناء الشمال كانوا يلجون فى عدائهم لداود وذريته ويثيرون النزاع القديم بين الاسباط ، وينكرون على الاقل عقيدة الخلاص على يدى ملك من اسرة الملك فى يهودا ويفتحون بذلك السبيل الى الايمان بالخلاص الروحانى والهداية الشعبية ، ويزعزعون الثقة فى احبار الهيكل الجنوبى وفيمن عسى ان يبايعوه بالملك ، اذا حان الموعد المقدور

ولم تخل البلاد جميعا ـ مع هذا ـ من اس هنا وهناك ينسوا من جميع الطوائف والنحل واعتزلوا الدنيا وعاشوا فى الصوامع بمعزل عن العمران ، وارتفع شأنهم فى اعين الشعب لسوء ظنه بالدعاة المغامسين للدنيا فى بيئات الساسة والكهان ، ومن هؤلاء « بانوس » الذى تتلمذ عليه يوسفيوس المؤرخ الكبير ثلاث سنوات ، وكان هذا الناسك الثائر يعيش فى عزلة

ويأكل مما يتفق له بغير سعى ولامسالة ، ويكثر من التطهر بالماء والتزكى بالرياضة والتلاوة ،وكان على مثال بانوس نساك متعددون يشبهونه فى شعائرالاعتزال والاغتسال ، واشهرهم يحيى المغتسل المعروف فى الاناجيل باسم يوحنا المعمدان !

أما موقف الهيكل من هذه الطوائف والفرق فهو الموقف « الرسمى » المعهود ... اوموقف المسئولين الذين يحاولون ان يتجنبوا التحيز لهذا أو لذاك،ويجتهدون غاية اجتهادهم ان يكسبوا ثقة الشعب ولا يغضبوا سلطان الدولة ، وقلما يتيسر النجاح فى هذه المهمة . ولاسيمافى اوقات القلق والتطلع والتبرم بكل موجود .

كان الهيكل خيمة فى عهد البداوة ، وكان الشعب يعتقد قديما ان الله يتجلى فى هذه الخيمة للانبياء والكهان ، ثم بنيت الخيمة من خشب يفك وينقل فى ايام التيه ، ثم اقام سليمان الحكيم هيكله بديلا من الخيمة والمعبد الخشبى ، وقيل انه انفق على بنائه مائة الف وزنه من الذهب والف الف وزنة من الفضة غير ما جمعه اسلافه واعقابه ، وبلغت تكاليف بنائه بحساب ايامنا الحاضرة نصف مليار من الجنيهات وضعف ذلك فى حساب الآخرين حسب تقدير المثقال فى المعاملات الرسمية وغير الرسمية ، وعظمت هيبة الهيكل وارتفعت اقدار كهانه واحباره ردحا من الزمن ، ثم هدمه البابليون بعد ان قام فى مجده اكثر من اربعة قرون ، ثم امر كورش الفارسى باعادة بنائه فى سنة ٥٣٦ قبل الميلاد ، وجاء الملك هيرود بعد خمسة قرون فجدد بناءه واضاف اليه ، وتم ذلك او كاد فى عصر الميلاد .

لكن الهيكل بعد تقلب العصور وسيطرة الدولة على مناصب الكهانة خسر من المكانة بمقدار ما كسب من الفخامة ، وبدا عصر

الميلاد وسلطان الهيكل يتداعى فى الحقيقة الواقعة ويتمكن فى الصورة الظاهرة : يتداعى لانه يقوم على غير ثقة ، ويتمكن لانه كان الموئل الوحيد الذى بقى لقومه بعد زوال ملكهم واليأس من اعادة ذلك الملك ، مع غلبة الرومان على المشرق والمغرب فى عصر الميلاد .

***

وقد كانت وظائف الهيكل كلها محصورة فى أصحاب الكهانة ، وهى وظيفة دينية كانت موقوفة على سلالة هارون أو قبيلته لا يتولاها غيرهم من أسباط اليهود ، ومن أعمالهم فى الهيكل امامة الصلاة والافتاء فى مسائل الفقه وتقديم الذبائح والخدمة الدينية فى الاعراس والمآتم والعناية بالآنية المقدسة ، وقد تزايد عددهم مع الزمن حتى قيل ان القائد زربابل (أى المولود فى بابل) كان معه عند عودته من البلاد البابلية نحو أربعة آلاف وثلثمائة كاهن غير السابقين والمتخلفين ، ولهذا كانوا يقسمونهم الى فرق تقوم كل فرقة منها بالخدمة أياما من الشهر ، ويقتسمون جميعا فى النذور والمرتبات .

ولما تطاول الزمن وتكاثرت ذرية هارون وجد منهم الوف بغير علم وبغير عمل ، يتعاطون صناعة الكهانة ويقتسمون النذور ولا يشتركون فى تعليم الشعب ولا فى اقامة الصلوات ، ووجد الى جانبهم أناس يعرفون الكتابة ويسجلون الأسفار الدينية ولا نصيب لهم من وظائف الهيكل ولا من نذوره وأوقافه ، وهؤلاء هم جماعة «الكتبة» او فقهاء الدين ، وكانوا جميعا من الفريسيين لأنهم هم الذين يقبلون الأسفار الحديثة ويعتمدون عليها فى العبادات والمعاملات ، خلافا للصدوقيين الذين كانوا - كما تقدم - يقصرون تلاوتهم على الكتب الموسوية الخمسة

ويرفضون كتب الانبياء من بعدها ولا يعتمدون من ثم على جماعة الكتبة والفقهاء .

فلما جاء عصر الميلاد كان كثير من الكهان يشتركون فى صناعة الكهانة ولكنهم لايعملون فى الهيكل ، وكان كثير من الكتبة والفقهاء يشتركون فى العلوم الدينية ولكنهم لايحسبون من رؤسائه الوراثيين ، وشاع بين الشعب اهمال الكهان فى المسائل الدينية التى تحتاج الى التعليم والافتاء على الخصوص ، وشاع بين الشعب كذلك الاقبال على العلماء « غير الوراثيين أو غير الرسميين » لسؤالهم فى المعضلات والاقتداء بهم فى مسالك الحياة ، فأصيبت المكانة « التقليدية » بضربة قوية وانفسح الطريق للدعوة الدينية غير مصحوبة بالمراسم « الكهنوتية » والشعائر « الهيكلية » على الخصوص

وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشهر الروايات مصفاة فى المجمع المقدس الذى يطلق عليه اسم « السنهدرين » .. وعدة أعضائه واحد وسبعون عضوا منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المخصوص وتغلب عليه الصبغة الرسمية التقليدية ، ويتصل أعضاؤه برجال الدولة فى الشئون العامة ومايرجع منها الى تنفيذ الاحكام والمحافظة على الشريعة المحلية أو الشريعة الموسوية

وعلى حسب المألوف يحاول أصحاب المناصب فى « السنهدرين » أن يرجعوا بأصله الى أقدم العهود ، وكانوا يزعمون انه هو المجلس الذى ورد ذكره فى سفر العدداذ يقول : « فقال الرب لموسى اجمع الى سبعين رجلا من شيوخ اسرائيل الذين تعلم انهم شيوخ الشعب وعرفاؤه واقبل بهم الى خيمة الاجتماع فيقفوا هناك معك ، فأنزل أنا واتكلم معك وآخذ من الروح الذى عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمله انت وحدك »

غير أن المراجع التاريخية ومراجع الكتب الدينية نفسها تخلو

من ذكر السنهدرين ، الا اشارة عابرة هنا وهناك لايستفاد منها تقدير عدده ولا تفصيل حقوقه ووظائفه ، ومما لاريب فيه أن المجلس الذى كان فى عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم فى الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثانى بنحو أربعين سنة ، وكانت أحكامه الكبرى فى أيام المسيح معلقة على اقرار الحاكم الرومانى يبرمها أو ينقضها حين يشاء

واذا نظرنا الى موقف هذه الهيئة من بشرى «المسيح المنتظر» لم نكد نرى فيها باعثا الى الترحيب بتلك البشرى ، لانها تتضمن الحكم بفساد الزمن كله واليأس من صلاحه واتهام القائمين على شئون الدين بين أهله ، ولكنها مع هذا لاتستطيع أن تتنكر لهذه الدعوة لأنها هى باب الامل الوحيد فى وجه المؤمنين والمترقبين ، فهى فى موقف الخائف من رجاء الشعب كله أن يتحقق على غير يديه ، أو موقف من يتأهب للبطش بالدعوة على قدر الاقبال عليها ومخايل الامل فى شيوعها وانتشارها ، وهى اذا انتشرت لم يكن انتشارها فى مثل ذلك العهد مقصورا على الدهماء دون غيرهم ، لان الفقهاء والعلماء والمتعلمين كانوا من الفريق الذى يستريب بالكهان ولا يأبى أن يصدق فيهم انهم كهان فاسدون مفسدون ، لأنهم آخر الزمان الذين تدركهم صيحة النذير وينصب لهم ميزان الحساب .

ولا يستوفى الكلام على القوى الدينية التى كان لها عمل محسوس فى موطن السيد المسيح قبيل ميلاده عليه السلام بغير الاشارة الى طائفة النذريين أو المنذورين الذين وهبوا أنفسهم أو وهبهم أهلوهم لحياة القداسة وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود : يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب .

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التى تجمع بين أصحاب النحل والمراسم الاجتماعية ، ولكنهم كانوا آحادا متفرقين ينذر كل منهم نفسه أو ينذره أهله على حدة ، ولا

ينتسبون الى جماعة واحدة غير جماعة الامة باسرها .

والكلمة باللغة العربيه ترجع الى مادة تفيد معنى التجنيد واستعيرت على مايظهر للجهاد فى سبيل الدين . يقال نذر الجيش الرجل جعله نذيرة اى طليعه . وربما كان من عمله ان ينذر قومه بالعدو ويبعدهم عن المخاطر والمفاجآت . ولا شك ان المادة تدور حول هذا المعنى فى العبريه مع اختلاف الحروف والاوزان .

ولا يشترط فى النذرى او المنذور ان يهجر العالم ويعتزل الناس فى الصوامع ولكنه يراض على حياة التنطس فلا يجوز له شرب الخمر ولا ان يدنس جسده بملامسه الموتى او الاجسام المحرمة ، وعليه ان يرسل شعره ولا يحلقه قبل وفاء نذره ان كان منذورا لأجل مسمى . وقد ينذر الطفل قبل مولده ويمتد نذره طول حياته . ويقال عن المنذورانه بمثابة النبى فى سن الفتوة ، قال النبى عاموس بلسان يهوا اله بنى اسرائيل . واقمت من بينكم انبياء ومن فتيانكم نذيرين .. لكنكم سقيتم النذيرين خمرا واوصيتم الانبياء ان يدعوا النبوءة . والنبوة هنا بمعنى الانذار بما سيكون

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد السيد المسيح لأنه وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبرى . وهو الموعد الذى كان منتظرا لبعثة المسيح الموعود ، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل الف سنة ومنهم من كان يقول ان اليوم الالهى كالف سنة كما جاء فى المزامير ، وان عمر الدنيا اسبوع الهى . تنقضى ستة ايام منه فى العناء والشقاء ويأتى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتى يوم السبت للراحة والسكينة ، فيدوم الف سنة كاملة هى فترة الخير والسلام قبل فناء العالم .

ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية millinnium ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعاده والسلام

فالذين قدروا ان القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الارض الى نهاية الالف السادسة ، ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود ، ولكنهم كانوا كغيرهم فى انتظار رسول من عندالله كلما انتهت الف سنة من بدء الخليقة ، وكانت بداءة الالف الخامسة موعدا منظورا أو منذورا يكثر فيه النـــذيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحدا منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه

والمهم فى أمر النذيرين بالنسبة الى السيد المسيح ان النبى يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) كان علما من أعلامهم المعدودين وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليـــه ، وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الامر بين النذيرى والناصرى وهما فى اللفظ العبرى متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم انه لم يكن من الناصرة بل يزعم ان الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم ، ولكن الارجح فى اعتقادنا ان الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الارض التى فتحها العـــبريون قديما ، وانها كانت مرقبا صالحا للاستطلاع لأن التلول التى تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج ابن عمير ، وبهذا تزول الصعوبة التى اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص ولا سيما الناظرين فى اللغة اليونانية ، لغة الاناجيل ، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف السامى فلا يفرقوا بين النسبة الى المنـــذورين والنســـبة الى النذيرة ، وبخاصة اذا كان اسم البلدة قد عرض له التصحيف على السنة العبريين والغرباء على طول الزمن ، فنطقوه تارة بالصـــاد وتارة بالسين

وليس النذيرون طائفة موحدة كما أسلفنا ، ولكنهم ينتمون الى

كل مذهب يوافق حمية الشباب، وهذا الذى جعلهم قوة ذات بال فى عصر الميلاد خاصة ، لأنهم جميعا فتيان معمـــورة قلوبهم بالأمل معقودة نياتهم على الاصلاح، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة الى المسيح الموعود ويترقبون ظهوره للترحيب به والاصغاء اليه ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود .

الحالة السياسية والاجتماعية
في عصر الميلاد

فتحت سورية وفلسطين للدولة الرومانية على يد القائدالكبير « بومباى » الذى قضى على ثورة العبيدالثالثة بقيادة«سبارتاكوس» المشهور

وقد حسبت هزيمة « سبارتاكوس » من العظائم التى أضافت الى مجد بومباى وخلدت ذكره بين أبطال الرومان ، ولكن هذه العظائم تضفى على الابطال والدول مجدا لاينطوى على خير كبير ، فمن دلائل القوة أن تستطيع الدولة قمع فتنة كتلك الفتنة الجبارة التى لم يعرف لها مثيل فى ثورات العبيد الأقدمين ، ولكنها ولا ريب دلائل القوة التى تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر ، فلو لم يكن فى بنية الدولة صدع مخيف لما استطاع عبد أن يجمع سبعين الف عبد ويقهر بهم جيوش رومة زهاء ثلاث سنوات، ولولا خلل فى كيان المجتمع لما اشتمل على اضعاف هذا العدد من الارقاء المسخرين الذين ينظرون الى مجد رومة نظرة الحقد ، ويجازفون بالحياة ليهبطوا به الى الحضيض

وقد كان سبارتاكوس من أهل تراقية ولم يكن أول «عبد» شرقى ثائر على الدولة الرومانية، بل سبقه رقيق آخر من البلاد الشرقية الى الثورة فى صقلية سنة (١٤٣ قبل الميلاد) واستطاع أن يقيم له عرشا استقر فى الجزيرة عشر سنين ، وهذه هى الثورة التى تجلى قائدها «اونس» لأتباعه فى صورة النبى المرسل وفى شارة الملك المتوج بيد الله ، وكان أصله فى سورية وكثير من أتباعه شرقيون

وقد سبقت ثورة أونس السورى ولحقت بها ثورات من قبيلها لم تبلغ مبلغها من العنف . ولم تخل احداها من صبغة دينية فيما تدعيه لقادتها ، وكانت واحدة منها فى آسيا الصغرى تنشىء لها حكومة تسميها حكومة «الشمس» رمزا الى عبادة النور والحرية ،

وتقيم هذه الحكومة والثوار المنهزمون فى صقلية يعلقون بالألوف على أخشاب الصلبان

ولم يكن هذا الخطر الكمين خافيا على المصـلحين من ساسة الرومان فى الاجيال القريبة التى سبقت ميلاد السـيد المسيح ، فأرادوا اصلاح العيوب الاجتماعية بالرجعة الى الشريعة التى تقيد المواريث وتحرم زيادة الميراث على خمسمائة فدان ، وظن كايوس جراشس Gracchus انه يعالج الآفة بانشاء طبقة جديدة من الصيارفة والتجار يحد بها من نفوذ النبلاء وأصحاب الضياع المتبطلين ، واضطر هو وأخوه الى تموين المعوزين بأغذية تبيعها الدولة بأقل من تكاليفها ، ولكن عوامل الخراب كانت فى تلك الاجيال أعمق وأفعل من عوامل العمار والصلاح ، فلما حاول يوليوس فيلبس فى سنة (١٠٤ قبل الميلاد) أن ينظم الاقطاعات بتشريعاته الزراعية قال فى خطابه « التفسيرى » كما روى شيشرون « ان ملاك الارض فى مدينة روما لا يزيدون على ألفين » .. وازدادت هذه الحالة سوءا فى عصر أوغسطس المجيد كما يوصف فى التواريخ ، فآلت المستعمرة الافريقيـة الى قبضة ستة من المتبطلين ، وفيها ألوف من الارقاء المسخرين

وعصر أوغسطس المجيد هذا هو عصر الميلاد الذى قال فيه السيد المسيح فى رواية الحوارى متى « ان للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكارا ، وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه »

***

والواقع انه كان عصرا مجيدا بقوة السيف دون كل قوة أخرى من القوى الانسانية ، وقد أخذت روما من قـوة السيف كل ما تعطيه : فتوح واسعة وسطوة تصد الاعداء وتقمع الثائرين ، وألقت روما بكل اعتمادها على هذه القوة فأصبحت لها سندا لا

غنى عنه ، وانتهت بها الحاجة الى تلك القوة أنها ألقت بنفسها على مذبحها ، فباعتها حريتها وكرامتها ، وضيعت الجمهورية فى سبيل القيصرية المطلقة ، بل رفعت القيصر الى مقام الربوبية المعبودة ، فخلعت على القيصر أوغسطس لقب اله ، وقررت عبادته مع الالهة ورصدت له شهرا فى السنة لا يزال معروفا باسمه الى اليوم ، وتتابعت بعده عهود القياصرة العسكريين من أمثال طراجان وهادريان وغيرهم من المتشبهين بهم ، حتى عز عليها آخر الامر أن تجد القياصرة العسكريين

وكان القانون والنظام فخر رومة الأول ، فضاع القانون مع السلطان المطلق ، وضاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين: ثروة وترف وطغيان من ناحية ، وفقر وضنك وهوان من ناحية ، ولا نظام للدول مع اختلال التوازن فى المجتمع ، بل لا نظام للحياة نفسها ولا قيمة لها مع افراط النعيم حتى السأم من الحياة ، وافراط الشقاء حتى النقمة على الحياة ، فصدق فى رومة كلها وصف السيد المسيح لذلك الرجل الخاسر الذى كسب العالم وضيع نفسه ، فضاع واضاع

ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية فى فلسطين دفعة واحدة على اثر افتتاحها ، لان التنازع بين الرومان والفرس لم يترك للبلاد قرارا فى مدى عشرين سنة ، وانقسم الر[illegible] بين الدولتين : منهم من يشايع الفرس ومنهم من يشايع الرومان، واشتد التناحر بين الفريقين اشتدادا خرج بهم الى ضراوة الوحشية فى مناصب الدين فضلا عن مناصب الدنيا ، ومن أمثلته ان أنصار الفرس تغلبوا على أنصار الرومان فى بيت المقدس ، وكان أنصار الفرس يرشحون رئاسة الكهنة انتيجونس بن اورسطبوس ، فقبض هذا بيديه على مزاحمه هيركانوس وقضم أذنه بأسنانه،

ليحول بينه وبين وظيفة الكهانة طول حياته ، اذ كانت هذه الوظيفة محرمة على المشوهين وذوى العاهات

وكان فى البادية الجنوبية من فلسطين زعيم مشهور بالحصافة والحزم على رأس قبائل الادوميين، عرف بفراسته وبعد نظره أن الكفه الراجحة فى النزاع على فلسطين لدولة الرومان، فانضوى اليها واستبسل فى معونتها .فكافأته على خدمته بتنصيبه ملكا على اليهودية والسامرة والجليل حيث ولد السيد المسيح، وكافأهم هو بالتمادى فى محاكاة المدنية الرومانية ، وأوحت اليه حصافته أن يداهن السلطة الدينية ويداهن السلطة الدنيوية فى وقت واحد، فتغالى فى اثرة اليهودية التى كانت قبيلته تدين بها على سبيل المداراة والمجاراة ، وتغالى فى محاكاة الرومان والاغريق بالازياء والمساكن والشارات والاسماء .وتكفل باتمام بناء الهيكل على نفقته ، ثم تكفل بترشيح رؤساء الهيكل من بين أعوانه «المترومنين» ان صح هذا التعبير ، لعلهم يدارون شططه فى محاكاة الرومان ومجافاة التقاليد العبرانية، كلما احتاج الى التوفيق بين النقيضين

ومع هذا الجهد المضنى فى التقريب بين الطرفين مات هيرود وهو مغضوب عليه أشد الغضب من أبناء دينه ، وحدث قبيل وفاته أن طائفة من الغلاة ثارت على مبانيه وانصابه لتمسح منها معالم الوثنية ، فعقد لهم محكمة علنية وأمر باجنادة فحملوه الى المحكمة، حيث قضى عليهم بالحرق وهم أحياء ! وقبض على الزعماء المحبوبين فحبسهم وأوصى أخته أن تقتلهم اذا مات قبل اعلان وفاته ، لتذهب حسرة الشعب عليهم بفرح الشماتة فيه ، فلا يمتعهم فى ذلك اليوم بالفرح الذى ترقبوه

وتمت البلية بتقسيم البلاد بين أبناء هيرود الثلاثة ، فوقعت الجليل ـ حيث ولد السيد المسيح ـ فى حصة هيرود الثانى انتيباس ، ووقعت اليهودية فى حصة ارخلاوس، ووقعت مشارف

الشام فى حصة فيلبب، وكان من مراسم الولاية أن يذهب الملك الى رومة ليتلقى عهد الامارة من يدي القيصر ، فهذا الذى يشير اليه السيد المسيح فى مثله المشهور كما رواه الحوارى لوقا حيث يقول مافحواه : « كان انسان شريف النسب ذهب الى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكا ويرجع ... وأما أهل مدينته فكانوا يبغضونه فأرسلوا وراءه سفارة يقولون : لا نريده ملكا علينا .. »

ولكن القيصر أقر الابناء الثلاثة فى ولاياتهم ، وخرجت البلاد ممزقة بين أبناء هيرود وحكومات النبطيين والمدن العشر، وقصدت رومة بهذا التمزيق أن تخيف ولاية بولاية وتلجئهم الى التنافس بينهم فى مرضاتها ، وتتخذهم جميعا درعا تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين

ومن المتواتر - مع تصحيح تاريخ السنة كما سيأتى بعد - ان السيد المسيح ولد فى أعقاب ثورة جائحة اشتعلت فى أقاليم فلسطين اليهودية على الخصوص ، وأهدرت فيها دماء الألوف من الغلاة واتباعهم لانهم هبوا فى وجه الدولة الرومانية محتجين على صدور الامر بالاحصاء العام، وليس الاحصاء بطبيعة الحال سببا ... لاشعال نار الثورة بين أبناء أمة مطمئنة. ولكنه اشعل نار الثورة فعلا لأنه أثار بين الاسرائيليين خاصة مشكلتين قديمتين من مشاكل فلسطين : احداهما مشكلة الاعتراف بملك غير « يهوا » الذى يؤمن الشعب اليهودى انه هو الاله وهو الملك، وان مبايعة الشعب لغيره كفر وخيانة يعاقبه عليهما بالضربات والمحن ولا يغفرهما له الا بعد كفارة تضيع فيها الأرواح والأموال ، فاذا دان اليهودى لملك غير « يهوا » أو غير مسحائه المختارين فهو مطرود من رحمة الله مستحق للعذاب والحرمان . وقد حسب الشعب الاسرائيلى أن الاحصاء مقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فردا فردا وتقييدهم عبيدا للقيصر مطالبين

بعبادته وافتتاح الصلوات باسمه، وكان فقهاء اليهود يدعنون للجزية وهى تؤخذ منهم عنوة عن طريق الالتزام الذى لا يخص الافراد بالاسماء بل يؤخذ جملة على الاكوار والاقاليم ، ولكنهم كانوا ينكرون اداء الجزية من ناحية المبدأ أشد الانكار ، ويحكمون بكفر من يجيزها ويشترك فى تحصيلها وينبذونه من الجماعة وينبذون معه من يعاشره ويتحدث اليه .ولهذا دبروا مكيدتهم للسيد المسيح ليسألوه امام جمهرة الشعب عن اداء الجزية هل يجوز أو لا يجوز « فأرسلوا اليه تلاميذهم من الهيروديين قائلين : « يامعلم . انك صادق تعلم بالحق ولا تبالى أحدا لأنك لا تنظر الى وجوه الناس . فقل لنا ماذا تظن ؟ أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا يجوز ؟ » فكان جوابه المشهور أروني معاملة الجزية ! ونظر الى الدينار الرومانى فسألهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ فلما أجابوه انها لقيصر قال لهم : أعطوا اذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وأسكتهم جوابه لانهم لا يرفضون العملة القيصرية مع وجود العملة اليهودية ، ولو كانوا يستنكرون اداءها حقا لأنكروا كسبها وادخارها ، وقد كانوا يكسبونها ويدخرونها ما عدا طائفة الغلاة منهم ، وهى التى ثارت عند تقرير الاحصاء العام

أما المشكلة الأخرى التى أثارها تقرير الاحصاء فهى مشكلة الضريبة وعسف الجباة فى تحصيلها ، فقد كان اليهودى يؤدى ضريبتين احداهما للهيكل والاخرى للدولة ، وقد جاء فى الأناجيل أن رسل الهيكل كانوا يطلبون ضريبة من السيد المسيح وتلاميذه، وانه عليه السلام سئل مرة أن يؤديها فقال لتلميذه سمعان : ما تظن ياسمعان ؟ ممن يأخذ ملوك الارض الجباية او الجزية؟ أمن بنيهم أم من الاجانب؟ قال له التلميذ : بل من الاجانب، فقال السيد المسيح : اذن أن البنين أحرار .. ولكنه عاد فامر

تلميذه باداء الضريبة عنه وعمن معه من التلاميذ .

وقد كان اداء ضريبتين عبئا فوق طاقة الفقراء ، ولكنه - مع العسف فى تحصيل ضريبة الدولة - كان عبئا لا يطيقه الموسرون فضلا عن الفقراء ، لان الدولة كانت تحصل الضريبة بطريق الالتزام والمزايدة ، فاذا حان الموعد السنوى فتح باب المزايدة ومنح صاحب المزاد الراجح حق التحصيل طوال العام ، وكان الجباة أو العشارون يأخذون لأنفسهم شيئا غير الذى يسلمونه للملتزم ، وكان الملتزم يأخذ لنفسه شيئا غير الذى يسلمه لخزانة الدولة ، فكان المال المحصل يربى على ضعفى المال المطلوب

ولهذا كانت طائفة العشارين بغيضة الى الشعب وكان الشعب الاسرائيلى لا يغتفر لأناس منه أن يتجردوا لخدمة الملتزمين الاجانب ويبتزوا المال حراما من أرزاق المعوزين ، ومن ثم كان انكارهم على السيد المسيح انه كان يخاطب العشارين ويدخل بيوتهم ويستمع الى مناجاتهم ، ولكنه كان يستمع لهم ويوصيهم بالامانة فى الجباية ... يسألونه : يامعلم ! ماذا نفعل ؟ فيقول لهم : لاتستوفوا أكثر مما فرض لهم ، ويقول للجند الذين يصاحبونهم : لا تظلموا أحدا ولا تشوا بأحد . واكتفوا بعلائفكم .. لأن الدولة كانت ترسل الجنود يجمعون طعامهم وعلائف مطاياهم من الناس !

فلما صدر الأمر بالاحصاء العام توهم الدهماء ان الدولة لا تكتفى بما تحصله جملة وتنوى أن تزيد عليه ضرائب تستوفيها من الآحاد فردا فردا مع الشطط فى تحصيل ضرائب الالتزام ، فاستجابوا داعى الثورة من الغلاة ، وغضبوا لعقائدهم كما غضبوا لأرزاقهم ، حين أمروا بالعودة الى بلادهم ليسجلوا أسماءهم حيث ولدوا أو حيث يقيمون

ومما لا خلاف عليه بين المؤرخين الشرقيين والاوربيين أن الحالة السياسية فى فلسطين خاصة كانت على أسوأ ما تكون ، ولكنها

على افراطها فى السوء لم تبلغ مبلغ الحالة الاجتماعية فى الدلالة على القنوط وعموم البلاء ، وحسب القارىء أن يتصفح الأناجيل كائنا ما كان اعتقاده فيها من الوجهة الدينية لكى تتمثل له حالة البؤس واليأس التى كانت ترين على القرى والمدن فى اقالم فلسطين ، ولا سيما اقليم الجليل الذى تواترت الروايات عنه ، فحيثما الانجيليون رحلة من رحلات السيد المسيح بين القرى فهناك أخبار عن العجزة والمرضى الذين يتعرضون لطلب الشفاء بعد اليأس من كل علاج ، وبين هؤلاء مشلولون ومفلوجون ومجانين ومصابون بالخرس والصمم والعمى ويبس المفاصل والاطراف ، وبينهم من يقال عنه أن جسده تسكنه الشياطين أو يتناوب سكناه جملة من الشياطين بالليل والنهار ، وكان بعض هؤلاء المرضى أطفالا وبعضهم من الشبان والكهول فى مختلف الأعمار ، وهذا الى أمراض البرص والنزيف والصرع الذى لا يقترن بالجنون

واذا كانت هذه هى الحالات البارزة فالى جانبها ولاشك حالات اخرى دونها فى الشدة والبروز تنم على الآفات الجسدية والنفسية التى فشت فى ذلك المجتمع وتركته مهيض الاعصاب عرضة للسخط والهياج ، ويضاف الى هذا ان عصر الميلاد قد شهد فى فلسطين طوائف شتى من الاساة الذين يطببون المرضى بالعلاج الروحانى ويعتمدون على قوة الايمان وطهارة المعيشة فى التطبيب والعلاج ، واذا قلنا ان عصر الميلاد قد شهد عصر امهيض الاعصاب فنحن نلتفت التفاتا خاصا الى هذه الظاهرة التى تشير الى الحالة النفسية فى جملتها فليس احوج من عصر كذلك العصر الى السكينة وثقة الايمان وليس اشد منه تعطشا الى التسليم والتطهير متى استراحت النفوس فيه الى الهادى الذى يرجى على يديه التسليم والتطهير ، فلم يأت أوان الرسالة المسيحية

حتى كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها وتعمل فى وجهتها عمل الرواد السابقين ، وقد كان اقوى هؤلاء الرواد يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان وان لم يكن هو الرائد الوحيد فى طريق الرسالة والنبوة ، فجعل للتطهير رمزا من الاغتسال بالماء . واثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد فى زمنه وهو بلاط الملك هيرود . فانها البؤرة التى استبيح فيها الفجور بالمحارم والبناء بهن على غير شريعة وقتل الاخوة والابناء وتدنيس العبادة والقداسة بالبذخ والجسارة على المنكرات ، فكانت جسارة النبى على التطهير كفئا لجسارة الطاغية الاثيم على الدنس والخبائة ، وقضى على الرسول ان يكون عاجل الرسالة فى حملته الصراح وخرج من الميدان شهيدا يجر وراءه جثة ميت بقيد الحياة ، فان جسد هيرود قد أكله الدود قبل دفنه ، وان عهده لقد وصف نفسه أصدق صفاته حين بذل راس النبى هدية لراقصة مبذولة الجسد ، ولا جرم يكون عصر يحيى المغتسل ، عصر رسالة عاجلة او عصر ارتياد وتمهيد : هجمة من هنا وهجمة من هناك ، ثم تبدا المعركة التى تستوفى الميدان كله ، ولا تنحسم ما بين صباح ومساء

الحياة الدينية في العالم
في عصر الميلاد

بلغت الدولة الرومانية على عهد الميلاد غاية مداها ، ودخلت في حوزتها أمم العالم المعمور كله ، ماعدا الشرق الاقصى ، واصبح من رعاياها اناس مختلفون في الجنس واللغة والعقيدة ، فشوهدت في رومة والاسكندرية ونابلس وبيت المقدس كل عبادة يدين بها البشر من تخوم الهند الى الشواطىء الاطلسية ، وكثر الحديث بين الناس عن الارباب والاديان والمذاهب والعقائد ، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدارس الحكمة والعلم الى الاسكندرية ، وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة ، وتعود الناس ان ينظروا الى الامور نظرة عالمية وبخاصة بين أهل الدرس والتأمل والمطالب الروحية

واعظم من هذه النظرة العالمية اثرا في موضوعنا — عبقرية المسيح — ان عصر الميلاد قد شهد عدة موجات دينية تجرى من الشرق وتغمر بلاد الدولة الرومانية نفسها ومنها العاصمة الكبرى ، خلافا لما يسبق الى الظن من غلبة العقائد تبعا لغلبة القوة السياسية

فلم تكن سيادة الدولة الرومانية على الشرق مقدمة لسيادة الديانة الرومانية كما جرت العادة في كثير من اطوار التاريخ بل حدث على نقيض ذلك ان عقائد الشرق هي التي غلبت على رومة واتباعها ، وهي التي انتقلت من الامم المحكومة الى الامة الحاكمة وجاءت المسيحية بعد ذلك فلم تكن استثناء من هذه القاعدة ، بل كانت تطبيقا جديدا لها أعم وأوسع من كل تطبيق متقدم عليها

وليس في الامر مخالفة للسنن الطبيعية كما يبدر الى الذهن لاول وهلة ، فان سريان العقائد من الشرق الى الغرب في تلك المرحلة

كان هو السنة الطبيعية التى تؤيدها جميع الاسباب ولا ينقضها سبب واحد صالح للتعليل

كان اتخاذ النحل الشرقية موافقا للقياصرة وموافقا للرعايا فى وقت واحد ، فقد كان القياصرة يطمعون فى الربوبية وكانوا يسمعون ان كهان المعابد فى الشرق يعلنون حلول الالهة فى اجسام الملوك، ويرشحونهم للعبادة ولم تزل المناداة بالاسكندر ابنا للاله « آمون » خبرا يتناقله المطلعون على سيرة ذلك الفاتح ويتشبه به منهم من يطمح مثل طموحه ويفتح مثل فتوحه ، وجر هذا المطمع الغريب الى فتنة عنيفة فى وطن السيد المسيح حين تصدى الملك انطيوخس ـ خليفة الاسكندر ـ بطلب الربوبية وسمى نفسه بالالهى او صاحب الشارة الالهية

وقد كان رعايا الدولة الرومانية خليطا من الشعوب المختلفة ، وسرى هذا الاختلاط الى الجيوش التى كانوا يسوقونها الى المشرق ويتركونها فيه زمنا ثم يتعمدون ابقاءها ثمة بعض الاحيان اتقاء لمنازعاتها كلما أطالت البقاء فى العاصمة ، ولم يكن من شأن هذا الخليط ان يتعصب لعبادات رومة او يعرض عن عبادات غيرها فوافقه ان يتشبه بالمشارقة كما الاسكندر ـ لطلب الربوبية من القياصرة !

ولم تزل سمعة الشرق عند الغربيين منذ القدم انه هو مهبط الاسرار العلوية وانه تعلم من خبر السماء مالا تعلمه الامم الغربية ، وان كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب وينفذون الى بواطن الديانات ، وكلمة السحر عندهم Magic منسوبة الى المجوس ، والسحر البابلى فى كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم الى الزمن الحديث ، وتوقيت الزمن بالاسابيع التى يسيطر كوكب من الكواكب على كل يوم منها تراث شرقى موغل

فى القدم ، لاتزال بقاياه فى التقويم الاوربى من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب

فلا عجب ان يؤخذ القوم بهذا السحر ، ويسلموا لابناء الشرق بأخبار السماء واسرارها ، مادامت الارض فى ايديهم يحكمونها كما يشاءون ، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء !

لهذا زحفت على العالم الرومانى نحلة « مثرا » ونحلة « ايزيس » ونحلة المتنطسين كما زحفت عليه نحلة اورفيوس اليونانية من آسيا الصغرى ، ومرجعها هى ايضا الى الشرق القديم

وقد شوهدت آثار العبادة المثرية فى اقصى اقطار الدولة الرومانية من المغرب : شوهدت فى آثار السور الرومانى بالبلاد الانجليزية كما شوهدت فى غيرها ، وشاعت العبادة بين شبان الجيش لان « مثرا » كان شخصية مزدوجة تجمع بين صفتين محبوبتين : احداهما صفة النور الذى يبدد الظلام والحق الذى يمحق الباطل ، والاخرى صفة المناضل رب الجنود الذى قيل فى كتاب المجوس المعروف بكتاب « الافستا » انه يسوق جحافله منتصرا لتغليب اله الخير اورمزد على اله الشر اهريمان ، وهو كذلك اله محبوب عند غير الجنود كالرعاة والعاملين بالليل ، يعبده الرعاة والملاحون ويهتدون بنوره فى اعمالهم الليلية ، ويعتقدون انه يولد فى الجسد الآدمى كما يولد الفقراء فى كهف مهجور ، ولهذا يتخذون له المعابد من الكهوف ، وربما حببه الى العباد ذلك الحنين المعهود فى الناس الى استطلاع الاسرار والطموح الى الترقى فى درجات العلم بالمجهول ، فقد كانت لعبادته درجات سبع ينتقلون فيها من درجة الى درجة على ايدى الائمة المختارين ، ويتعاطون الشعائر فى كل احتفال سرا او جهرا على

ملأ من الصفوة المقربين ، ومنها تناول الخبز والخمر واعتبار الشهد المقدس الذى يوضع على اللسان رمزا الى حلاوة الايمان

واقترنت نحلة « ايزيس » المصرية بنحلة « مثرا » الفارسية فى غزو بلاد الرومان واليونان ، فسماها اليونان « ديمتر » ونحلوها صفتها المصرية وهى صفة الامومة الكبرى او صفة الطبيعة الأم ، وكان عبادها يوحدون بينها وبين القمر ويعتبرونها من ثم ربة البحر والملاحة ، ويرسمون لها صورا جميلة تنم على الطهارة والحنان وفى حضنها طفل رضيع يشع النور من وجهه رمز اللامومة والبر والبراءة ، وكان كهانها يحلقون رؤوسهم فى الغرب ، حاكاة للكهنة المصريين ، وكان لها بينهم عابدون وعابدات يسمونها حامية البيت والاسرة ، ومن ثم شيوع عبادتها بين الرومان الذين إشتهروا بتقاليد الاسرة وتقديس حقوق الآباء ، ولاشك ان المراسم السرية التى تلازم نحلة ايزيس كان لها أثرها فى تشويق الناس الى انتحالها كما كان لها مثل هذا الاثر فى عبادة مثرا وما شابهها من العبادات

وخرجت من مصر ايضا نحلة نورية على قلة عدد المنتمين اليها ، وهى نحلة المتنطسين Therapeuts التى ذكرها الحكيم الاسكندرى اليهودى فيلون ، وقال ان اتباعها كانوا يجتمعون يوم السبت ويتفرقون بعد ذلك فى الصوامع للتأمل والدراسة الفلسفية ورياضة الروح والجسد واسمهم اليونانى معناه الاساة او المتنطسون ، واكثر صوامعهم كانت على مقربة من الاسكندرية حول بحيرة مريوط القديمة . ويظن بعض المؤرخين ان هؤلاء المتنسين هم اساتذة النساك اليهود الذين يسمون الآسينين او الاسينيين ، واشرنا اليهم فى الكلام على فرق اليهود

ومما يلاحظ ان نحلة « اورفيوس » اليونانية لم يكن لها من الاشياع

بين الرومان ماكان للنحل الشرقية الخالصة ، ولعلهم كانوا يحسبون « الاسرار الدينية اختصاصا للشرق القديم ويرجعون الى اليونان فى مسائل الفلسفة والفن والخطابة ، وبخاصة بعد ان تحولت الديانة « الاورفية » الى ديانة شرقية تجرى على سنة الشرق فى التقشف والاخوة الروحيه ، وقد نشأت الاورفية اليونانية نشأة فنية وقيل فى وصف اورفيوس انه كان يعزف على أوتاره فيقبل عليه الوحش والنعم والطير وتنسى ضراوتها وهى تصغى اليه ثم اصبح التأليف بين الضوارى والنعم رمزا الى التأليف بين القلوب وانتزاع الشر من نفوس الاقوياء ، وجاء عصر الميلاد والاورفيون يدينون بالزهد والتقشف ويحرمون اللحوم ويلبسون الثياب البيض ولا يذوقون الخمر الا فى مراسم القربان ، واحتفظوا بعقيدة اليونان الاقدمين فى اساطيرهم عن أورفيوس الفنان فزعموا انه يزور عالم الموتى ويعود منه وجعلوا لهم موعدا يحزنون فيه على موته وموعدا يحتفلون فيه ببعثه ، وتشابه الاحتفال ببعثه والاحتفال ببعث أدونيس ، اله الربيع ، وكثيرا ماقيل فى كتب المقابلة بين الاديان ان اتون الاله المصرى وادونيس الاله اليونانى « ادوناى بمعنى السيد او الرب باللغة العبرية اسماء عدة ترجع الى مصدرها المصرى القديم

***

ومن الواضح ان هذه النحل التى كانت تصطفى الاعضاء والمريدين وتحتفظ بالعبادات والرموز للصلوات السرية لم تكن ديانات عامة تبشر الامم كافة بظواهرها وخوافيها ، وانما كانت فى جوهرها اشبه بالروابط والجماعات التى تضم اليها المشتغلين بغرض واحد او المتفقين فى المزاج والعاطفة ، وكانت اقرب

الى الجماعات الفنية الرياضية التى تقوم على تخير الاذواق وتوحيد العلاقات بين الاشباه والنظراء ، فكان طلابها جميعا من الشبان الذين يستطلعون حقائق حياتهم المجهولة ويعتقدون او يرجحون ان هذه الحقائق سر من اسرار العلم والدراية يهديهم اليه الحكماء المجربون المدربون ، وكان لهاطلاب من الكهول والشيوخ بطلت عقيدتهم فى الشعائر العامة فانصرفوا عنها الى حيث يلتمسون الحقيقة ويشعرون براحة الضمير فى جو من الالفة واتفاق المطالب النفسية والفكرية ، فمن لم تكن هذه النحل عنده حلقات رياضية او فنية فهى عنده بمثابة الاندية التى تصون روادها من الاخلاط و « الاغيار » ولا سيما الاغيار من ذوى الجهالة والاسفاف

ولكن الدلالة الكبرى التى تتجمع من شيوع هذه النحل فى عصر الميلاد انها «اولا» علامة على طلب الاعتقاد واحساس المخلصين المستعدين للايمان بما يحيط بهم من الخواء فى جو التقاليد والمعتقدات

وانها « ثانيا » علامة على الوجهة العالمية التى اخذت تسرى فى انحاء العالم المعمور وتؤلف بين ابناء الامم المختلفة فى طلب العقائد الروحية ، لان هذه النحل السرية لم تكن مقصورة على أمة دون أمة ولم تكن محرمة على احد من اجل جنسه واصله ، فكل من يفتح وجدانه لعقائدها وآدابها فهو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من أدناها الى اعلاها

أما جماهير الشعوب فلم تكن تحفل كثيرا بهذه النحل الخاصة المقصورة على طلابها ومريديها . وكانت على دأبها سادرة فى عاداتها ومألوفاتها ، ولكنها لم تحل فى هذه العادات والمألوفات من وجهة عالمية تنزع الفوارق بين اتباع الديانات المختلفة وتضمهم جميعا بين حين وآخر الى محافل الاعياد العامة التى تقام

لهذا « الرب » او لتلك « الربة » او تتردد فى مواسم الطبيعة بصبغتها التى كانت تمتزج بالدين على عادة الاقدمين ، وكانت سياسة الدولة الرومانية تساير هذا الشعور بل تشجعه وتحض عليه ، اذ كانت القاعدة الذهبية عند دهاقين السياسة من الرومان ان الشعوب لاتهتم بمن يسوسها متى وجدت الخبز واللعب بين يديها ، ومن اللعب الذى يكلف الدولة شيئا ان تفرح جماهير العامة بالاعياد وتتسابق فى المواسم والموالد وتصبغها كما تشاء بصبغة القداسة ، فذلك أسلم من التنازع والفتنة والصدام

وجملة مايقال عن الحياة الدينية يومئذ فى العالم المعمور انها كانت حياة تقليد او حياة تطلع ورغبة فى الاعتقاد عن بحث وبينة انفة من عقائد التقليد ، وانها كانت تجرى فى مجراها الى « العالمية » التى تعم الناس ولاتخص كل أمة بعقيدتها على حسب جنسها واصلها ، واهم من هذه العالمية فى النحل والمحافل « عالمية » فى اللغة والثقافة حطمت اقوى الحواجز التى كانت قائمة قبل ذلك زهاء عشرة قرون ، فقد كان العبرانيون يؤمنون ان العبرية هى لسان « يهوا » الذى يخاطب به الانبياء ويناجى به الكهان فى المحارب ، فلم يلبثوا أن قبلوا الدعاء واستمعوا الى كتب الوحى باللغة الآرامية ، ومايشابهها من اللهجات السريانية ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بترجمة التوراة الى اللغة اليونانية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم استرسلت هذه الحركة الى مداها فى عصر الميلاد وما بعده ، فكانت الآرامية هى اللغة التى بشر بها المسيح والتلاميذ ، وكانت اليونانية هى لغة الاناجيل ، وكانت السريانية لغة التوراة والانجيل معا ولما ينقض اكثر من قرن واحد على مولد السيد المسيح

***

واهم الظواهر التى تسجل فى سياق الكلام على الشؤن الدينية

العامة قبيل الميلاد ان العقائد الوثنية كانت فى حالة اشبه ماتكون بحالة التصفية قبل شهر الافلاس ، فقد روى المؤرخ سويتنوس ان القيصر أغسطس جمع فى سنة (١٢ قبل الميلاد) قرابة ألفى قرطاس من النبوءات والصلوات المكتوبة باللاتينية والاغريقية وامر بها فاحرقت علانية ، واحتفظ بقليل من المخلفات المأثورة فوضعها فى صندوقين مذهبين ونقلها الى معبد الاله ابولون ، وفى هذا الخبر خلاصة اخبار العقائد الوثنية فى ذلك الجيل

الحياة الفكرية
في عصر الميلاد

كانت المذاهب الفكرية التي يتحدث بها المثقفون شائعة في بلاد الجليل حيث ولد السيد المسيح وحيث اختلط الغربيون والشرقيون كثيرا قبل عصر الميلاد ببضعة قرون ، واكثرها الفيثاغوريه والابيقورية والرواقية ، وهي التي تعنينا فضلا عن شهرتها ، لانها هي المذاهب التي تتصل بالسلوك والاعتقاد ، ومنها مذهبان ظهرا بين اليونان في عصر يشبه عندهم العصر الذي ولد فيه السيد المسيح ، وهما الابيقورية والرواقية ، فان هذين المذهبين - على تناقضهما - ردفعل لحالة واحدة غمرت البلاد اليونانية بعد انتصارها على الدولة الفارسية ، وهي حالة الترف والبذخ واللهو والطغيان من جانب السادة وحالة النقمة من جانب العبيد والمسخرين

وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى في غاية واحدة وهي طلب السكينة والراحة ، الا ان الفيثاغورية التي ظهرت قبل عصر الترف والسلطان كانت اقرب الى الروحانية والمزج بين عقائد الامم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود ، وهي جميعا اقرب الى النشأة الشرقية ، لانها نشأت بين قبرص وآسيا الصغرى

وقد كان اتباع فيثاغوراس طائفة تجتمع في « اخوة » ذات شعائر وصلوات بعضها معقول وبعضها من قبيل المحظورات والمحرمات التي تشيع بين القبائل البدائية وتستوجب عندها عادات مقدسة او امتناعا عن بعض العادات ، وقد كانوا يعتقدون في رئيسهم فيثاغوراس انه ابن الاله « ابولون » وانه لم يمت وسيبعث بعد حين ، لانهم يؤمنون كأهل الهند بتناسخ الارواح ، وان الروح في الجسد غريبة تلتمس الفكاك ولا فكاك لها بغير صالح الاعمال ، وهم يحرمون اكل الحيوان ويحرمون كذلك أكل الفول ويستحسنون اجتناب البقول على العموم ، ومن محرماتهم العجيبة ألا يأكلوا من رغيف صحيح والا يلتقطوا شيئا وقع على الارض ولا يقطعوا الزهر من

الشجر ولا ينظروا فى المرآة الى جانب النور ، ومنهم من كان يعظ الحيوانات لانهم يؤمنون انهم يخاطبون أرواحا تسكنها الى حين ، وعندهم ان الناس درجات بشر وانصاف من بشر والهة ، وفيثاغوراس أحد هؤلاء

وكان فيثاغوراس يقبل الرجال والنساء فى اخوته ويوجب المشاركة فى الاقوات والمقتنيات التى تصل الى ايدى الجماعة ، ويؤمن اتباعه بعد موته بأنه يلهمهم الكشوف العلمية ويلقنهم عظات الحكمة والخلائق الحسنة وان الحياة كانت « فرجة » عنده وهى كذلك عند من يشبهونه . فالعالم فى رأى الفيثاغوريين كساحة الالعاب الاولمبية ، يقصدها اناس للتكسب وهم أخس الزائرين ، ويقصدها اناس للمباراة وهم فوق ذلك ، ويقصدها اناس للفرجة وهم أرقى منهم جميعا ، وكذلك الفلاسفة الذين يزورون العالم للتأمل والنظر هم ارفع من المتكسبين والمتنازعين على جوائز الميدان

والافكار الفلسفية نفسها هى وحى من الله ، ويردون اشتقاق كلمة ثيو Theory الى اسم الله ثيوس Theos باليونانية فكل حكمة عندهم فهى من الحكمة الالهية يتلقاها الباحث بالرياضة والمناجاة « والانسجام » بينه وبين موسيقى الكون . اذ الكون كله عندهم نسب عددية موسيقية وصورة كماله عدد الاربعة ، لعله كذلك عندهم لانه يجمع العناصر الاربعة التى تخلق منها جميع الاشياء

وقيل ان لهم أغراضا سياسية وانهم كانوا يتآمرون على الدولة فى اجتماعاتهم السرية ، وقد عاش فيثاغوراس فى القرن السادس من الميلاد وساح فى بقاع العالم المعمور كله ، وبقيت نحلته او اخوته فى جميع الاقطار ، ولاسيما الاقطار التى اقام فيها اليونان المستشرقون

أما الابيقورية والرواقية فقدظهرتا فى عصر واحد ، وانتشرتا بين المثقفين فى جميع انحاء العالم المعمور ، ويبدو عليهما انهما متناقضتان ولكنهما فى الواقع متقاربتان او يمكن ان تتقاربا عملا على حسب التفسير والسلوك فى المعيشة

نشأ ابيقور بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد ، وولد على القول الاشهر فى جزيرة ساموس على مقربة من شواطىء آسيا الصغرى ، ولاذ بآسيا الصغرى مع أهله هربا من الاضطهاد ، وقد اقبل على دراسة الفلسفة وهو فى نحو الرابعة عشرة ، وافتتح مدرسته فى حديقة المشهورة بأثينا سنة ٣١١ قبل الميلاد وهو فى نحو الثلاثين

واذا قيست فلسفة ابيقور على معيشته الشخصية فهى حياة نساك متقشفين ، لانه كان يقضى معظم ايامه على الخبز والماء اوعلى الخبز والجبن ، ولكن اسمه اقترن باللذات والشهوات، لانه كان يعلم تلاميذه ان السرور هو غاية الحياة وافضل السرور مالم يعقب ألما ولا ندما ، ولهذا كان يجتنب الشهوات البهيمية ويجعلها من قبيل السرور « المتحرك » وهو السرور الذى يقترن بالجهد ويعقب الندامة والعناء ، وقد كان يقسم السرور الى نوعين : سرور متحرك وسرور مستقر او ساكن ، وافضلهما كما تقدم سرور السكينة والاستقرار ويعنى به سرور التأمل والراحة والقناعة

وكان ابيقور يقبل فى مدرسته العبيد والراقصات والمأجورات ولا يرى حرجا فى طلب السرور حيث يوجد بريئا من الالم والندم ، بل لايرى كيف يتخيل الحكيم « الخير » اذا أخرج من حسابه مسرات الذوق والنظر والسماع » ومن اعرض عن سرور يستطيعه فى غير الم ولا ندم فهو احمق وليس بحكيم

وقد انحى ابيقور على الديانات اليونانية وغيرها من ديانات زمانه

لانها محشـــوة بالخـــرافات والاكاذيب ، وعلم تلاميذه ان الآلهة موجودة ولكنها مشغولة بسعادتها عن شئون الدنيا فلا قدر لها فيها ولا قضاء ، ولا فرق عنـــده بين الارباب والمخلوقات الا فى لطافة المادة ونقاوة التركيب ، فكلها من المادة وليس لغير المادة وجود... ومن هنا كان يقبل كل تفســـير لظواهر الوجود يرجع بهـــا الى الاسباب الطبيعية ويرفض كل ما كان مرجعه الى الارباب والغيوب ويواجه الموت نفسه على مذهبـــه فى السرور والالم ، فان لم يكـــن فى الموت مسرة فهو خلاص مـــن آلام الحياة ، ولهذا شاع مذهب ابيقور فى عصور الشك والسآمة وفقدان اليقين والايمان بالعناية ، وفضله المكذبون بالديانات عـــلى مذهب الرواقيين لان الابيقورية ـ خلافا للرواقية ـ لا تعفى أصحابها من التكاليف ولا تفرض عـــلى عقولهم او ضمائرهم واجبا يثقل على كواهلهم ، ولكنها مع هـــذا كانت تجمع قواعدها ووصاياها فى أصول منظومة اشبه بالاوراد الدينية التى يستظهرها المريد ويترسمها ترسم الايمان والعبادة

***

واذا أردنا تلخيص المـــذهب الرواقى فى كلمتين اثنتين فهاتان الكلمتان هما الصبر والعفة

الصبر على الشدائد والعفـــة عن الشهوات ، ولا سعادة للانسان من غير نفسه وضميره ، فمـــن راض نفسه عـــلى مغـــالبة الالم والحزن وقمع الشهوة والهـــوى فقد بلغ غاية السعادة المقـــدورة لابناء الفناء ، وهم يؤمنون بالقدر ويعتقدون ان الكون كله نظـــام متناسق يجرى على حسب المشيئة الالهية ، والوحى والرؤيا والفال وطوالع النجوم من وسائل العلم باسراره وخفاياه ، ويلتقى الانسان بالعقل مع الالهة وبالجسد مـــع الحيوان الاعجم . وفضيلتـــه الانسانية هى ان يطيع العقـــل ويعصى الجسد ، وعصيانه الجسد هو مقاومة الشهوات ، وطـــاعته العقل هى طلب المعرفة ، وسعادة

الانسان كلها هى السعادة التى تتهيأ له من الاستغناء عن الشهوة وتحصيل العلم ، فما زاد على ذلك من السعادة فهو وهم لايدرك او هو فضول لاخير فيه

وقد نشأ الرواقيون الاول ماديين يؤمنون بأن الوجود كله اصل واحد ، ولكنهم تدرجوا فى الروحانية وانتهى خلفاؤهم فى عصر الميلاد وما بعده الى الايمان بحرية الروح فى مواجهة المادة ، فالاله الاكبر «زيوس» لايستطيع أن يجعل الجسد حرا من قيود المادة ولكنه يعطينا قبسا من روحه الالهية . نصبح بنعمته اخوانا لايفرق بينهم وطن ولاجنس ولا لغة واينما يكونوا فهم مع الله ، لاحاجة بهم الى هيكل أو معبد ، فانما القداسة فى النفس التى تعبد وليست القداسة فى مكان للعبادة يصنعه البناء والحداد ومن صلواتهم الصلاة المشهورة التى أثرت عن زعيمهم كليانتس (٣١٠ ٢٣٠ قبل الميلاد) حيث يناجى زيوس قائلا: « اهدنى يازيوس ، ايها القدر ، خذ بيدى الى حيث اردت ان ترسلنى ، خذ بيدى اتبعك غير ناكص ولا وجل فان خامرنى الريب فاحجم ، وتريثت فمن أتباعك لا مهرب لى ولا نجاة »

ويتبع الرواقى طريق القدر لانه هو الخير ليس هو ضروره وكفى ، فان الاله الاكبر لايريد شرا ولا يخلقه ، وما هذه الشرور التى فى الدنيا الا نقائض محتومة يستلزمها وجود الخير ولا يعقل الخير بغيرها ، فلا محل للراحة بغير التعب ولا محل للشبع بغير الجوع ولا محل للرحمة بغير القسوة ، واذا كانت القسوة رذيلة فالرحمة التى تسلم النفس للحزن والغم ليست بالفضيلة الالهية ، وانما تكون الرحمة فضيلة اذا تبصرت كما يتبصر الاله فى قضائه ، فتنكر القسوة ولا تخضع للحزن والغم بغير حيلة ، فان الحكيم يحمل فى حكمته ترياق كل شر ودواء كل بلاء

وقد اخذ الرواقيون من الهند ـ بسبيل فيثاغوراس على مايظهر ـ ان العالم ينقضى ويعود فى دورات ابدية لاتعرف لها نهاية ، واعتقد بعضهم ان ارواح الحكماء تبقى فى كل دورة الى نهايتها ، ثم يشملها مايشمل العالم كله من حريق النار الابدية ، وهى النار التى تطهر جميع الموجودات لتخلص من اوشابها ثم تعود دواليك فى وجود بعد وجود وعالم بعد عالم وقيامة بعد قيامة

والمدرسة الرواقية بأسرها مدينة للائمة الشرقيين ولا سيما القطبين الكبيرين فى هذه المدرسة زينون (٣٤٠ ـ ٢٧٠ قبل الميلاد) وبوزيدون (١٣٥ ـ ٥١ قبل الميلاد) فهم جميعا من الفينيقيين او من اليونان الذين استشرقوا واقاموا منذ زمن فى البلاد الشرقية ، وخلاصة مذهب الامام الرواقى الاكبر ـ زينون ـ كما لخصناه فى كتابنا عن الله ، ان الاله جوهر ذو مادة Soma وان الكون كله هو قوام جوهر الاله ، وان الاله يتخلل اجزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا ، وان الناموس Nomos وهو بعبارة اخرى مرادف للعقل الحق Orthos Logos او الكلمة الحقة ـ هو والاله زيوس شىء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون ، وكان زينون يرى للكواكب والايام صفة الهيبة ويعتقد ـ كما اسلفنا ـ ان الفلك ينتهى بالحريق وتستكن فى نار جميع خصائص الموجودات المقبلة واسبابها ومقاديرها ، فتعود كرة بعد كرة بفعل العقل وتقديره ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم كانها مدينة يسهر عليها حراس الشريعة والنظام ، ويترادف عنده معنى الله والعقل والقدر وزيوس ، فكلها وما شابهها من الاسماء تدل على موجود واحد ، وقد كان هذا الموجود الواحد منفردا لاشريك له فشاء ان يخلق الدنيا فاصبح هواء واصبح الهواء ماء ، وجرت فى الماء مادة الخلق Sparmatikos Logos كما تجرى مادة التوليد فى الاحياء ، فبرزت منها مبادىء الاشياء وهى النار والماء والهواء

والتراب ، ثم برزت الاشياء كلها من هذه المبادىء على التدريج ، وتعريف القدر عند زينون انه القوة التى تحرك الهيولى ، وهى قوة عاقلة ، لان مايتصف بالعقل اعظم مما يتجرد منه ، ولا شىء أعظم من الكون Cosmos فهو عاقل لانه عظيم . ويفسر زينون تعدد الالهة فى معتقدات العامة بانهم بحثوا عن الله فى مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الاساطير من تشبيهات الخيال . ولكن هذه التشبيهات ان هى الا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية .

وآخر الاقطاب الرواقيين قبل الميلاد - بوزيدون الذى اشرنا اليه - كان يعلم تلاميذه ان الروح لاتفنى بفناء الجسد وانها ترتقى صعدا فى السماء على حسب ارتقائها فى المعرفة والفضيلة ، فمن الارواح مايرفرف على مقربة من الارض ومنها مايحلق بين الافلاك العلى ويسبح معها وينعم بالنظر اليها والاستماع الى الحانها فى مسراها الى يوم القيامة . وقد كان هذا الحكيم معنيا بالهند فى بحوثه الجغرافية الفلكية كما كان معنيا بها فى بحوثه الفكرية الدينية ، نقرر فيما رواه عنه صاحب كتاب « الرواقيون والشكوكيون » Stoics and Sceptics ان المسافة بين قادش والهند سبعون الف ستادة ، وهى مقياس يونانى يساوى نحو مائة وخمسة وسبعين مترا ، ويقال ان هذا التقدير كان فى حساب كولمبس عندما قصد الى الهند من طريق البحار الغربية

ويتفق مؤرخو الفلسفة على قوة الاثر الذى أعقبته المذاهب الرواقية فى العالم الرومانى الى اقصى أطرافه ، وتظهر قوة هذا الاثر وسعة مداه من اتساعه لتبشير الملوك والارقاء بعد ظهور امامه الاول - زينون - بنحو اربعة قرون ، فكان من أئمته العبد الرقيق ابيكتيتس (٦٠ - ١٠٠ بعد الميلاد) والامبراطور الكبير

ماركس اورليوس (١٢١ ـ ١٨٠ بعد الميلاد) وفاخر بالانتماء الى هذا المذهب قادة ورؤساء من الذين زاروا الشرق واقاموا فيه

أما فلسطين خاصة حيث ولد السيد المسيح فقد كان هذا المذهب ومذهب الابيقوريين يتقاسمان فيها افكار المتدينين وغير المتدينين ، وتغلغل المذهبان بين الطوائف الاسرائيلية كأنهما زيان من ازياء الثقافة التى يتراءى بها أدعياء العلم والمدنية ، فكان الصدوقيون يميلون الى الابيقورية وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية على كراهتهم للتشبه بالاجانب ، ولكن شيوع الاقطاب الشرقيين بين الرواقيين كان يصبغ نحلتهم بالصبغة الوطنية التى لايتحرج الفريسيون من محاكاتها ، تمشيا مع نزعتهم الى التجديد

ومن المصادفات التى تساعد على تتبع اثر المذاهب الفكرية فى العالم الاسرائيلى ان عصر الميلاد انجب اكبر فلاسفة الاسرائيليين فى العصر القديم وهو يهودا فيلون ، الذى ولد بالاسكندرية سنة (٣٠ قبل الميلاد ، ومات سنة (٥٠ بعده) ومزج فى فلسفته بين عقائد عصره ومذاهبه الفلسفية من كل منبت ولا سيما منبت الاغريقية الاسكندرية ، وقد اخذ القول بالكلمة Logos من الرواقيين عن هيرقليطس اول القائلين بها فى الزمن القديم . وقال انها هى واسطة الله فى علاقته بهذا العالم واخذ تفسير الرموز الدينية من العبادات السرية كعبادة ايزيس وعبادة اوزيريس سرابيس التى تأسست بالاسكندرية وتفرعت فى أثينا وروما وبعض الموانىء الاسيوية ، ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة فشرحها شرحا عقليا يخالف فى كثير من المسائل شروحها التقليدية ، وقال فى كلامه عن خلق العالم ان موسى عليه السلام لم يأت بأسلوب كأسلوب اصحاب الشرائع الذين يحصرون احكام قومهم فى الحلال والحرام بغير

تصرف ولا تنقيح ولا بأسلوب كأسلوب اصحاب الشرائع المبهمة التى تحيط بها الالغاز والزيادات وانه روى ة الخليقة رواية تتضمن ان الدنيا مطابقة للنظام (او الشريعة) وان النظام مطابق للدنيا ، وان الانسان الذى يتبع النظام ، مواطن صالح للعالم كله ، يسير فى عمله وفقا لمشيئة الطبيعة التى تسير الدنيا كلها وفقا لمشيئتها

وقد كان فيلون رواقيا على حافة الابيقورية ، فقال فى كلامه عن ابراهيم مفسرا اسم اسحاق « ان معنى اسحاق فى لغتنا الضحك . ولكن الضحك هنا غير الضحك الذى يأتى من سرور الجسد ، فهو سرور المعرفة الصالحة ، وهذا هو الفرح . هذا الفرح الذى روى لنا ان الحكيم ابراهام قدمه قربانا الى الله مبينا بذلك فى هذا الرمز ان الفرح على صلة وثيقة بالله وحده . اذ الانسان عرضة للحزن والخوف من الشرور الحاضرة والمتوقعة ، وليس الحزن ولا الخوف من طبيعة الله »

ومذهب فيلون فى الصلاة ان الانسان يصلى شكرا لله على مافى الكون كله وخلائقه كلها ومنها بنو آدم جميعا رجالا ونساء ويونان وبرابرة ومنها ذات المصلى جسدا وروحا ومنطقا وعقلا وحسا ، فان الصلاة على هذا المثال جديرة ان تستجاب

وينقسم الانسان عند فيلون الى ثلاثة اقسام : وليد الارض ووليد السماء ووليد الله ، فوليد الارض من يطلب متاع الجسد ، ووليد السماء من يطلب متاع الفكر ، ووليد الله من تجرد عن الدنيا واقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم معصوم من الفناء براء من المادة ، فى زمرة الهداة والمرسلين

وليس فيلون من دعاة العزلة فى الصوامع ، لان اختلاف المكان لايصنع شيئا وانما الخير كله من الله حيث كان ، وهو كائن فى كل مكان ، يهدى ركاب الروح الى حيث يشاء

كذلك لم يكن يستعظم ضحية القرابين كما قال فى كلامه عن

الشرائع الخاصة» ان الله لايفرح بالضحايا ولو حسبت بالمئات لانه مالك كل شيء ومعطى الناس كل شيء ومن عطاياه تلك الضحايا وقد يكون التقرب بخبز الشعير أقوم عنده من التقرب بالنفائس والذخائر ، بل من تقدم اليه بنفسه لايحتقب شيئا ... صدق وخلوص النية اكرم عنده ممن يبذل الاموال ويسيء الاقوال والفعال ».

وقد كان فيلون عالميا يخاطب بنى الانسان كافة ، وكان يقول ان اسرائيل انما سمى بهذا الاسم لانه ينظر الى الله ، فكل ناظر الى الله اسرائيل . ولكن هذه الدعوة العالمية لم تصرفه قط عن العصبية القومية ، ولم ينس قط فى كلامه عن بنى اسرائيل انهم هداة الامم وانهم أحق شعائر الانسان باعجاب جميع العشائر فأن الاثينيين يرفضون شعائر اللقدمونيين كما يرفض اللقدمونيون شعائر الاثينيين ، ولم يعهد فى المصريين انهم يأخذون بتقاليد السيثيين او فى السيثيين انهم يأخذون بتقاليد المصريين ، وأهل أوربة يعرضون عن عادات أهل آسيا وأهل آسيا يعرضون عن عادات أهل أوربة ، ولكن اليوم السابع الذى يستريح فيه اليهود مرعى الحرمة عند جميع الاقوام ، ويوم الكفارة من كل سنة اقدس من الشهر الحرام فى عرف الاغريق ، اذ هو شهر يبطل فيه القتال ولكنه يغرى الناس بالافراط فى الشراب والطعام وشهوات الاجسام ، وشتان هذا من موسم الصيام والقنوت عند بنى اسرائيل

يقول هذا عن قومه ، فى كلامه عن حياة موسى عليه السلام ، ولكنه يقول فى كلامه عن الشرائع الخاصة ان اسرائيل بين الامم كاليتيم المضيع بين الغرباء ، لايأخذ بناصرهم احد اذا تألبت الاقوام وتعصبت العشائر ، وذنبهم عند الناس انهم يدينون انفسهم بالفرائض الصارمة ويتزمتون فى المعيشة والصرامة ثقيلة على الطباع والتزمت بغيض الى النفوس ، ومع هذا يقول

لنا موسى ان يتم اسرائيل يستجلب لها شفقة الله مدبر الكون الذى وقعت اسرائيل من نصيبه وفرزت من العالم كما تفرز بواكير الثمار هدية للخالق والاب الرحيم »

***

تلك غاية الشوط الذى انتهى اليه فيلون فى زمنه ولا يعتبر فيلون من الائمة ذوى الاتباع فى الديانة الموسوية ، ولكنه يعتبر نموذجا صالحا لتلك الديانة كما يفهمها الحكيم المطلع المتدين فى أوائل عصر الميلاد

جــليل الأمـــم

ولد السيد المسيح بأرض الجليل - أو جليل الامم - كما كان يسميها الاسرائيليون ، لانها كانت اقليما مفتوحا لجميع الامم الشرقية والغربية ، ولم يخلص سكنه للاسرائيلين وحدهم فى زمن من الازمان

ومعنى الجليل بالعبرية الدائرة ، يعنون بها الاحاطة ، لانها اتسعت لكثيرين ممن يحال بينهم وبين الاقامة فى بلاد اخرى من فلسطين ولا سيما الجنوب

وكانت الجليل جزءا من اقاليم الشاطىء الشمالية التى عرفت فى التاريخ القديم باسم كنعان ، ثم اطلق عليها اليونان اسم «فينيقية» من اللون الاحمر على مايظهر ، وهو لون الصخور والجبال

وقد امتازت كنعان قديما بالموانىء الصالحة ووقوعها على طريق التجارة من البحر الابيض الى خليج فارس الى اقصى المشرق واشتهرت فى هذه الموانىء صيدا وصور وحيفا ، وكادت تجارة المشرق والمغرب تنحصر فى صيدا وصور ، لان الشواطىء الجنوبية خلت فى الزمن القديم من الموانىء الصالحة ، ولم تكن وراءها مسالك مطروقة للتجارة غير مسالك الصحراء ، وهى يومئذ قليلة الامن كثيرة التكاليف

ولهذا الموقع الفريد حفلت أرض الجليل من قديم الزمن بالسياح والمقيمين من جميع امم الحضارة فى المشرق والمغرب ، وتوثقت صلاتها بجميع الحضارات الانسانية ، وراجت فيها الصناعات والمعارف العملية والنظرية ، ولاسيما المعارف التى لها علاقة بالملاحة كفن بناء السفن ورصد الكواكب والكتابة حتى تواتر ان تجار الفينيقيين وملاحيهم هم الذين نشروا الابجدية فى بلاد البحر الابيض ، ومنها انتقلت الى سائر الامم الاوربية

وقد دخل بعض بلاد الجليل - او كنعان - فى مملكه داود بعد

انشائها ، ولكن العـــلاقة بين الجليل واليهودية ظلت على الدوام علاقة حذر وجفاء ان لم تكـــن علاقة حرب وعـداء ، وكان اثر السيطرة اليهودية عـــلى بلاد الكنعانيين ان اليهود اخذوا من الكنعانيين معالم حضارتهم وعولوا عليهم فى الصناعة والتجارة، وجاء فى العهد القديم غير مـرة ذكر الاستعانة بالصناع والخبراء من أهل كنعان فى تشييد الهيـاكل والقصور اليهودية ، ومن ذلك فى سفر الملوك ان سليمان ارسل الى حيرام ملك الكنعانيين يرجوه ان يأمر بقطع الخشب لبناء الهيكل ويقول له : « انك تعلم انه ليس بيننا أحد يعرف قطـــع الخشب كالصيدونيين » . ومنه وصف المهندس الذى كان ابوه من صدروامه من سبط نفتـــالى « وكان ممتلئا حكمة وفهما ومعرفة لكـــل عمل فى النحاس » (١)

وقد جاء فى الاصحاح السابع والعشرين من سفر حزقيال انهم كانوا يتجرون بالحنطة والعسل والزيت والبلسان والحـــلوى وغيرها من منقولات الامم الاخرى

واعتمد اليهود على الكنعانيين فى شؤن الثقافة والفن ولم ينته اعتمادهم عليهم عند مطـــالب التجارة والصناعة ، فنقلوا عنهم الكتابة وأوزان الشعر وأناشيد الصلوات ، وحدث غير مرة انهم تركوا عقائدهم وتحولوا عنها الى عقائد الكنعانيين ، والى ذلك يشير العهد القديم فى سفر القضـــاة حيث يقول : « وفعل بنو اسرائيل الشر فى عينى الرب وعبـــدوا البعليم وتركوا اله آبائهم الذى أخرجهم من ارض مصر » والى ذلك أيضا يشير العهد القديم فى سفر الملوك الاول حيث يقول النبى ايليا، ان بنى اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا انبياءك ، الى ان يقول : « وقد ابقيت فى اسرائيل سبعة آلاف وهم كـــل الركب التى لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله »

---

(١) الاصحاح السابع من الملوك الاول

ولما تكاثر عدد اليهود المقيمين في الاقاليم الشمالية من فلسطين كالجليل والسامرة ، تغـيرت عاداتهم ومأثوراتهم ونظر اليهم ابناء اليهودية نظرتهم الى الخوارج الذين انقطعوا عن اصولهم وتابعوا الغرباء على عاداتهم وآدابهم، وكان الواقع ان اهل الجليل خاصـة تعودوا الكلام بالآرامية وهي لغة اهـل سورية الداخليـة ، او باليونانية ، وهي لغة القادمين من البحر او من آسيا الصغرى ، واقتبسوا كثيرا من مأثورات الفرس والهند والعراق ، لانهم كانوا يلتقون بأبناء هذه البلاد القادمين مع القوافل الشرقية ، ويرجح بعض المـؤرخين ان الفينيقيين الاقدمين جميعا كانوا من قبائل الخليج الفارسي التي جلت عنه وسارت مع طـريق القوافل حتى استقرت على شاطىء بحر الروم وظلت محافظة بعد ذلك على علاقتها بالبحار الشرقية

وبلغ من بغض أهل اليهودية لابنـاء ملتهم في الشـمال ان ... حنا هيركانوس ، المكابي اغار على الاقاليم الشمالية ، ومنهـا بلاد في السامرة وبلاد في الجليل ، فأعاد من فيها من اليهود الى الجنوب وخير ا[illegible] في الشم[illegible]رة او قبول ال[illegible]تان وشار[illegible] اليهودية ففضلوا البقاء على المهـاجرة من بلاد آبائهم واجـدادهم او من البلاد التي استوطنوها منـذ زمن طويل، ولبث السامريون منفردين بتقاليدهم . ولبث اهل الجليل متهمين منظورا اليهم بعين الريبة والاستغراب

ومما اتفقت عليـه اقوال المؤرخين وتردد كثيرا في روايات التاريخ ان جمهرة كبيرة من اهل الجليل كانوا عربا يتكلمـون الآرامية ويلفظون العبرية بلهجة اجنبية يلحظها اهل الجنـوب ويميزون المتكلم بها من كلمات قليلة تبدر منه عرضا على غـير روية ، وكذ[illegible] عرف الحـواريون في الهيكل كما كانوا يعرفون في كل فلسطين

وقد كان من الامثال السائرة على السنة اليهود المتعصبين لتقاليدهم وعاداتهم « انه لاخير يأتى من الجليل ، وفى انجيل يوحنا ان نثنائيل عجب حين قال له صاحبه « اننا وجدنا الذى أنبأ عنه موسى » وانه من الناصرة فى الجليل ، فأجابه مستغربا : « أمن الناصرة يجيء شيء صالح »(١)

وفى انجيل يوحنا ايضا يروى عن رجال الهيكل انهم كانوا يقولون متهكمين « انه لم يقم نبى قط من الجليل » (٢)

كانت السماحة الدينية وقلة التحرج مما سبب هذه النقمة على الجليل واهله فى نفوس ابناء اليهودية المنكرين لكل سماحة والجامدين على كل حرج ولكن هذا السبب بعينه هو الذى جعل ارض الجليل اصلح منبت للدعوة الانسانية التى ترقبها العالم فى ذلك العصر ، فما كان من اليسير ان تنبثق دعوة الاخاء بين الامم فى كنف الحجر والجمود

وقد اتفق بعد مولد السيد المسيح ببضع سنوات ان الجليل خرجت من سلطان ملك اليهودية على أثر وفاة هيرود الكبير ، وانها دخلت هى والبادية المجاورة لها فى نصيب ابنه هيرود انتيباس وربما كان عليه السلام فى العاشرة من عمره حينما هدم الرومان عاصمة الامير الجديد ، وبنيت العاصمة الجديدة طبرية على مقربة من الناصرة حيث نشأ عليه السلام ، ولا شك انه فى نحو العاشرة يسمع اخبار هذه الضربة ويسمع اخبار الثورة التى تقدمتها واعقبت بعدها ما اعقبته من جرائرها ، وقد كانت مشكلة التعصب او مشكلة السماحة الدينية حديث صباه واول ما طرق مسمعه من مشكلات السياسة والدولة ، ولما سميت العاصمة

---

(١) الاصحاح الاول

(٢) الاصحاح السابع

الجديدة باسم العاهل الروماني طيبريوس سمع ولا يحك تعقيب الكبار على .ت الملق المر وشهد العبث من ذوى السياسة والامارة قبل الاوان ، وادرك ان العواصم تهدم وتبنى ، وان الدول تدول ، وان الطـــاغية يتزلف والمتزلف يطغى ، وان مجد الرياء زيف وخواء ، فسحت نفســه البريئة فى آفاق غير هذه الآفاق وصور لفؤاده الذكى ملكــوت السماء صـــورة غير هـــذه الصورة ، تخـــالفها ولا تزال تختلف عنها كلما تقدمت به الايام

تاريخ الميلاد

يفهم من رقم التقويم الميلادى أن السيد المسيح ولد فى السنة الاولى للميلاد ، وعلى هذا الحساب يجرى العمل بين الامم الاوروبية منذ سنة ٥٣٢ للميلاد وهى السنة التى دعا فيها الراهب دينوسيس الصغير (Exigus) الى تاريخ الايام من السنة الاولى للميلاد ، وصحح الحساب على تقديره ثم جرى العمل على حسابه الى الآن

ولم يكن الرجل صغيرا فى مكانته الدينية ، ولكنه أطلق لقب الصغير على نفسه من قبيل التواضع والانكسار ، وقد حقق بحوثه ومراجعاته ما استطاع فى زمانه فلم يسلم من الخطأ فى حساب بضع سنوات ، ثم تعذر اصلاح هذا الخطأ عند ثبوته فتقرر استدراكه باضافة اربع سنوات الى التقويم القديم الذى يحسبه أصحابه منذ بدء الخليقة ، واعتبروا أن السيد المسيح ولد فى سنة أربعة آلاف وأربع بحساب ذلك التقويم

أما القول الراجح فى تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الاولى ببضع سنوات ، وأنه على أصح التقديرات لم يولد فى السنة الاولى للميلاد

ففى انجيل متى أنه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير ، وقد مات هيرود قبل السنة الاولى للميلاد بأربع سنوات

وقد جاء فى انجيل لوقا أن السيد المسيح قام بالدعوة فى السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين ، وقد حكم طيبريوس الدولة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة ٧٦٥ من تأسيس مدينة رومه ، ومعنى هذا أن السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالى سنة ٧٧٩ رومانية ، وأنه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أى قبل السنة الاولى للميلاد بأربع سنوات

ويذكر انجيل لوقا أن القيصر اوغسطس أمر بالاكتتاب - أى الاحصاء - فى كل المسكونة ، وأن هذا الاكتتاب الاول جرى اذ

كان كيرنيوس واليا على سورية، فذهب الجميع ليكتتبوا كل فى مدينته ، وصعد يوسف ... من مدينة الناصرة الى اليهودية ... ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى ، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر ».

والمقصود بالاكتتاب هنا - على ماهو ظاهر - أمر الاحصاء الذى أشار اليه المؤرخ يوسفوس وأرخه بما يقابل السنتين السادسة والسابعة للميلاد ، ولا يمكن أن يكون قبل ذلك لان تاريخ ولاية كيرنيوس معروف وهو السنة السادسة ، فيكون السيد المسيح اذن قد ولد فى نحو السنة السابعة للميلاد ، وتكون دعوته قد بدأت وهو فى الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين ، وهو تقدير يخالف جميع التقديرات الاخرى ويخالف المعلوم من مأثورات الاسرائيليين ، فان الكاهن اللاوى عندهم كان يباشر عمله بعد بلوغ الثلاثين ، وكان الاحبار المجتهدون عندهم يبلغون الخمسين قبل الجلوس للتفسير والافتاء فى مسائل الفقه الكبرى ، ولهذا قالوا عن السيد المسيح أنه لم يبلغ الخمسين بعد ويدعى أنه يرى ابراهيم ويستمع اليه ، ولو أنه بدأ الدعوة قبل الثلاثين لكان الاحرى أن يعجبوا لكلامه قبل بلوغه سن الكهنة اللاويين

ويغلب على تقدير المؤرخين الثقات أن الاحصاء المشار اليه هو الاحصاء الذى ذكره ترتليان Tertullian وقال انه جرى فى عهد ساتورنينس Saturninus والى سورية الى السنة السابعة قبل الميلاد ، فاذا كان هذا هو الاحصاء المقصود فالسيد المسيح كان قد بلغ السابعة فى السنة الاولى للميلاد

ومن القرائن التى لا نريد أن نهملها قرينة الكوكب الذى قيل أن كهان المجوس تتبعوه من المشرق ليهتدوا به الى المكان الذى ولد فيه السيد المسيح

فمن المعروف أن خبراء فينيقية وفارس كانوا يشتغلون بالفلك

والتنجيم ، وانهم كانوا فى عصر الميلاد يرقبون حادثا جللا فى التاريخ البشرى حوالى سنة الميلاد ، وكانوا كذلك يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر ذلك الحادث الجلل المترقب من حين الى حين ، وكان قران المشترى وزحل من الطوالع الهامة عند سكان المشرق على البحر حيث ترصد الكواكب للملاحة والتفاؤل ، وفى داخل البلاد الفارسية حيث ترصد الكواكب للعبادة واستيحاء الارادة الالهية ، ويكفى أن نذكر بقايا هذه العادة فى البقعة الفينيقية الى مابعد أيام المعرى لنعلم شأن الارصاد هنالك كما كانت فى الزمن القديم ، وقد كان المعرى الضرير يعنى نفسه بهذه الارصاد ويقول عن قران المشترى وزحل خاصة فى لزومياته

قران المشترى زحلا يرجى ... لايقاظ النواظر من كراها
وهيهات البرية فى ضلال ... وقد فطن اللبيب لما اعتراها
وكم رأت الفراقد والثريا ... قبائل ثم أضحت فى ثراها
تقضى الناس جيلا بعد جيل ... وخلفت النجوم كما تراها

فاذا كان هذا ما تخلف من العناية بالارصاد فى البقعة الفينيقية الى أيام المعرى فليس من الامانة للبحث أن نهمل قرائن الارصاد كل الاهمال ، لاننا نرفض التنجيم ونرفض دعوى المجوس فيه

فمن المعقول أن ننكر على المنجمين علمهم بالغيب من رصد الكواكب وطوالع الافلاك ، ولكن لا يلزم من ذلك ان ننفى ظهور الكوكب الذى رصدوه ، وأن نبطل دلالته مع سائر الدلالات ، وبخاصة حين تتفق جميع هذه الدلالات

وقد ذكر فردريك فرار فى كتابه «حياة المسيح»(١) أن الفلكى الكبير كبلر حقق وقوع القران بين المشترى وزحل حوالى سنة ٧٤٧ رومانية ، ويقول فرار فى وصف هذه الظاهرة : « ان قران

(١) الجزء الاول صفحة ٣١ الطبعة الثانية من مطبعة كاسل

المشترى وزحل يقع فى المثلث نفسه مرة كل عشرين سنة ، ولكنه يتحول الى مثلث آخر بعد مائتى سنة ، ولا يعود الى المثلث الاول بعد عبور فلك البروج كله الا بعد انقضاء سبعمائة واربع وتسعين سنة وأربعة أشهر واثنى عشر يوما ، وقد تراجع كبلر بالحساب فتبين له أن القران على هذا النحو حدث سنة ٧٤٧ رومانية فى مثلث النونين او الحوتين وأن المريخ لحق بهما سنة ٧٤٨ رومانية .

ويظهر من هذا الحساب أن تاريخ الميلاد يضاهى التاريخ الذى يستخلص من التقديرات الاخرى على وجه التقريب ، وأن السيد المسيح ولد فى نحو السنة الخامسة أو السادسة قبل الميلاد.

ونعود فنقول أن اثبات الرصد لا يستلزم الايمان باطلاع المجوس على الغيب من مراقبة الافلاك ، وكل مايفهم ، ولا يجوز أن يهمل ان الذين كتبوا تاريخ السيد المسيح بعد عصره بنحو جيلين كانوا يتناقلون خبر تلك الظاهرة ويؤمنون بدلالتها على حدث عظيم فقرنوا بينها وبين ميلاد المسيح المنظور ، ولعل الاناجيل قد دونت والناس يتحدثون بقران فلكى من قبيل ذلك القران فى حكم القيصر هادريان ، فقد ظهر يومئذ مسيح كذاب آمن به الربانى عقيبة ليدحض دعوى المسيحيين ، وسماه ابن الكوكب «باركوكبه بالعبرية» ونقش على العملة التى سكها صورة كوكب ، فعادت الذاكرة بكتاب الاناجيل الى تلك الظاهرة الفلكية النادرة ، بعد الدعوة المسيحية بنحو سبعين سنة

***

على أن الدراسات الاخيرة فى علم المقابلة بين الاديان تسوق المؤرخ الذى يكتب عن تاريخ المسيح حتما الى مبحث عويص أدق جدا من المبحث الذى يدور حول السنة الميلادية ، فان القرن الثامن عشر قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق فى مقررات

العلم القديم ووقائع التاريخ المتواتر ، فشك الكتاب فى وجود الانبياء والمرسلين وكاد الشك يتناول كل نبى وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام : شكوا فى بوذا كما شكوا فى ابراهيم وموسى وعيسى . وسرى الشك الى الأدب كما سرى الى الدين ، فشكوا فى شخصية هوميروس وفى شخصية شكسبير وظن بعض المثبتين للشخصيات المتأخرة فى التاريخ أنها وجدت فعلا ولكنها لم تضع ما نسبوه اليها ولم تكتب ماينشر بأسمائها

وقد زار فولتير ـ أمام الشاكين ـ بلاد الانجليز فوجد هناك مدرسة بولنجبروك تتحدث بغاية السهولة فى شبهاتها عن وجود السيد المسيح ، وكان نابليون يسأل العالم الالمانى ويلاند : هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخى وجد كما وصفوه ؟ .. وجاء القرن التاسع وقد طغت على ميدان الدراسات الدينية موجات من الكتب التى ألفها الالمان والدنمركيون والفرنسيون والانجليز يفندون بها أقوال المؤرخين ويرجحون أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال ، وليس من المستطاع فى هذا الحيز أن نورد أقوالهم مفصلة أو مجملة فى هذا الموضوع ، فان أسماء المؤلفين والمؤلفات وعناوين المسائل التى طرقوها وخلاصة البراهين التى شفعوا بها بيان تلك المسائل تستغرق وحدها كتابا كهذا الكتاب ، ولكننا نجتزىء بتلخيص الاساسين المهمين اللذين قامت عليهما مدرسة الشك فى وجود السيد المسيح ، وأحدهما أنه عليه السلام لم يذكر فى التواريخ القديمة التى فصلت أخبار عصره والآخر أن روايات التلاميذ عنه قد سبقت روايتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الزمن القديم وبعضها أقرب الى الاساطير والفروض

أما المؤرخون الذين خصوهم بالذكر فهم يوسفوس Josephus

وتاستيس Tacitus وسوتينوس Suetonius وكلهم ممن ارخوا عصر الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن أيامه

نعم وردت فى نسخ من تاريخ يوسفوس اشارة مقتضبة الى « عيسى القديس » ولكن النقاد التاريخيين يجزمون بأنها مضافة اليه ، ويؤكدون أنها اضيفت بقلم احد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الاشارة الى أعظم الحوادث فى ذلك العصر ، فاباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الاشارة كأنها من كلام يوسفوس على اعتبار أن الحقائق التاريخية أمانة عند من يعلمها وليست أمانة المؤلف وحده سواء عرفها أو لم يعرفها، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودى الذى ينكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين فيقول: « انه فى ذلك العهد عاش عيسى ذلك الانسان القديس — ان جاز أن يسمى انسانا بعدما أتى به من المعجزات البينات وعلم الناس وتلقى الحق فاستبشر به ، واتبعه كثير من اليهود والاغريق ، وكان هو المسيح »

قالوا : ان يوسفوس اليهودى الذى مات على دينه لا يكتب هذا ولا يؤمن ايمان المسيحيين ، ولو انه آمن كما آمنوا لما اكتفى بتسجيل ذلك الحادث العظيم فى ثلاثة سطور جاءت عرضا بغير تعقيب أو تفصيل

ومن اللاهوتيين الذين عقبوا على هذه الملاحظة القس هورن Horne الذى ألف كتابه «مقدمة الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة» وأدرك به هجمة الشكوك الاولى فى سنة ١٨٣٦(١)

فقد ذكر هورن أن هذه العبارة موجودة فى جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التى حفظتها مكتبة الفاتيكان من الترجمة العبرية ،

---

(١) Introduction to the Critical Study and Knowledge of the Holy Scriptures.

وان العبارة نفسها مرجودة فى النسخة العربية التى تحفظها الطائفة المارونية بلبنان ، وان كتاب القرن الرابع والقرن الخامس من السريان والاغريق والمصريين قد اطلعوا عليها واستشهدوا بها وان يوسفوس قد أشار فى موضع آخر الى جيمس أسقف أورشليم حيث قال : « ان حنانا عقد السنهدرين اليهودى وأحضر امامه جيمس أخا عيسى المسمى بالمسيح ومعه آخرون ثم أمر بهم ان يرجموا عقابا لهم على عصيان الشريعة »

قال هورن : ولو ان أوسبياس Eusobius اول من استشهد بالعبارة المتقدمة كان قد اثبتها مختلقا لها لما عدم ناقدا يكشف دسيسته من المطلعين على كتاب يوسفوس وهو كتاب له مكانة موقرة بين الرومان من قديم الزمن ، وبفضل هذه المكانة كسب يوسفوس شرف الوطنية الرومانية ، بل كان من الراجح جدا ان يتصدى اليهود لمن يدس تلك العبارة فى تاريخهم الاشهر فيفضحوه تفنيدا له وتفنيدا للديانة التى يدعيها .

والمع هورن الى الشكوك التى تحيط بتلك العبارة لانها لم تذكر قط فى كلام معروف قبل اوسبياس ، فقال ان هذه الشكوك لا تقيم حجة لاصحابها لان اقطاب المسيحية كانوا فى غنى عن الاستشهاد بأقوال المؤرخين مع استطاعتهم ان يثبتوا رسالة السيد المسيح فى نبوءات كتب التوراة .

وختم هورن ردوده بتوجيه عبارة يوسفوس الى معنى لا يستلزم ان يكون المؤرخ اليهودى مؤمنا بالمسيحية او برسالة المسيح المنتظر ، ولعله سماه « المسيح » رواية عن اتباعه الذين كانوا يدعونه مسيحا ويعرفونه بشهرته الغالبة .

اما المؤرخ الرومانى تاسيتس الذى كتب تاريخه حوالى سنة (١١٥ ميلادية) فاقدم ما ذكره عن السيد المسيح لا يرجع الى

اقدم من سنة أربع وستين ميلادية ، ولم يذكره مباشرة بل اشار الى اسمه فى سياق الكلام على حريق رومة حيث قال ان الامبراطور نيرون اقلقه اتهام الناس اياه باحراق المدينة فالقى التهمة على طائفة العامة الذين يسمون بالمسيحيين وينسبون الى المسيح الذى حكم عليه بونتياس بيلاطس بالموت فى عهد القيصر طيبريوس » .

ولا يعرف الآن علام استند تاسيتس فى رواية هذه النسبة ، ولكنها كانت على كل حال رواية شائعة بين اناس كثيرين لم يشهدوا عصر المسيح .

وكذلك لم يذكر سويتنيوس خبرا مباشرا عن السيد المسيح ولكنه قال فى تاريخه لقيصر كلوديس « انه نفى من رومة جماعة اليهود الذين كانوا على الدوام يثيرون المتاعب بتحريض كريستس » وكتبها هكذا باللاتينية Chrestus لان الاسم التبس عليه بين كرستس بمعنى الطيب وكريستس بمعنى المسيح

وايا كان مستند هذا المؤرخ فلا يستفاد من روايته الا ان العاصمة الرومانية كان فيها اناس يعرفون باسم المسيحيين عند منتصف القرن الثانى للميلاد ، وانه كان يحسب ان الزعيم كرستس كان يحرض اتباعه بنفسه فى ذلك التاريخ .

وقد عاش فى عصر السيد المسيح نفسه كتاب ومؤرخون من اليهود مثل الفيلسوف فيلون الذى سبق ذكره والمؤرخ جستس الطبرى الذى عاش فى الجليل ايام الدعوة المسيحية وكتب تاريخ قومه من عهد موسى الى نهاية القرن الاول للميلاد ولم ترد فى تاريخه اشارة مباشرة او غير مباشرة الى الدعوة المسيحية .

تلك خلاصة الحجة التى تقوم على خلو التواريخ المعاصرة من ذكر الدعوة المسيحية فى عصرها

أما الحجة الاخرى وهى حجة التشابه بين القصص المروية عن السيد المسيح والقصص المروية عن الارباب فى العبادات الشرقية القديمة ، فهى تعتمد على تفصيلات كثيرة تحيط باخبار المعجزات والشعائر فى ديانات الاقدمين من المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين ، واكثر النقاد المتشبثين بهذه الحجة من علماء المقابلة بين الاديان المطلعين على اديان المشرق فى لغاتها ، ويغلب عليهم ترجيح القول بأن اخبار المسيح بقية من بقايا الديانات الشمسية يدل عليها عدد « اثنى عشر » الذى يشير الى البروج ويشير الى عدد التلاميذ ، ويدل عليها الاحتفال بالميلاد فى يوم الاعتدال الخريفى على حساب الاقدمين ، والاحتفال بيوم الاحد الذى اعتقدوا قديما انه يوم الشمس ويعرف حتى اليوم فى اللغات الاوربية بهذه النسبة ، وذلك عدا المشابهة فى اسم الام والولادة فى المذود وركوب « الحمار ابن الاتان » وغير ذلك من الشعائر والمعجزات .

والغريب فى شأن هؤلاء العلماء انهم لم يكلفوا انفسهم تفسيرا مقبولا لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد ، فان التفسيرات التى فرضوها تتسع لشكوك كثيرة كلها اغرب من القول بشخصية المسيح التاريخية ، ولا يكفى ان يقال ان اخبار المعجزات والشعائر قديمة لتفسير الدعوة المسيحية بغير داع وبغير محور معلوم تدور عليه ، وقد توفى بولس الرسول فى نحو سنة سبع وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين سنة يبشر باسم المسيح ، ولم يكن قد طال العهد بتاريخ الدعوة ولم يحدث خلال ذلك مايفسر تكوينها من المعجزات

والشعائر التى ظلت قبل ذلك مئات السنين متواترة على الالسنة وكان تواترها قديما اقوى واشيع من تواترها بعد تقادم العهد وتتابع السنين .

وكل ما يفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين على سبيل الجزم ان المؤرخين لم يدركوا خطرها ولم يميزوها من الحركات المتفرقة التى كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة عامة ، ويعزز هذا ان الطائفة الجديدة لم تذكر باسم خاص فى الاناجيل جميعا غير ثلاث مرات ، فذكر اتباع السيد المسيح باسم المسيحيين فى الاصحاح الحادى عشر من اعمال بولس الرسول حيث قيل ان التلاميذ دعوا « مسيحيين » لاول مرة فى مدينة « انطاكية » ثم جاء فى الاصحاح السادس والعشرين على لسان الملك اغريباس انه قال محتجا : « اهون بما تقنعنى به ان اصير مسيحيا » وجاء فى الاصحاح الرابع من رسالة بطرس : « ان عيرتم باسم المسيح فطوبى لكم ... ان احدكم لا يتالم لانه قاتل او سارق او فاعل شر او صاحب فضول ، فان تالم لانه مسيحى فلا يخجل »

وجملة ما يؤخذ من الكلمة فى هذه المواضع الثلاثة انها كانت نسبة ازدراء وتعيير على السنة اعداء المسيحيين ، وليس من الصعب ان يضيع الكلام عن طائفة لا عنوان لها بين ما يكتب عن جماهير ذلك الزمن فى غمار التواريخ ، وبخاصة اذا كانت لم تبلغ من الخطر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى ، وكان من هم اولئك المؤرخين ان يستصغروا شانها لانها طائفة مغضوب عليها فى مراجع الدين ومراجع الدولة ، فالهيكل ينكرها والحكومة الرومانية تترفع عنها ، ولم يحدث قبل ذلك ان طائفة من طوائف فلسطين جمعت بين غضب السلطتين ، وهى مع ذلك غير معروفة بعنوان تدور عليه الاخبار !

***

ويبدو لنا أن نشوة العلم الجديد - علم المقابلة بين الاديان - هي التي دفعت أصحابها في القرن الثامن عشر الى تحميل المشابهات والمقارنات فوق طاقتها فاننا نرى أمامنا في هذا العصر ان هذه المشابهات لا تنفي ولا تثبت ، بل لعلها الى الاثبات اقرب منها الى النفي على الاجمال .

نحن نرى في هذا العصر ان اتباع الطرق الدينية يتنافسون فينسب كل منهم الى وليه المختار كرامات جميع الاولياء الآخرين ، لانه يؤمن بتلك الكرامات ولا يشك في وقوعها ولكنه يعتقد ان وليا واحدا هو الجدير باتيانها وهو الولي الذي اصطفاه وفضله على غيره من الاولياء .

ونحن نرى في هذا العصر وفي جميع العصور ان المشهور في صفة من الصفات تضاف اليه نوادر تلك الصفة وعجائبها ويصبح علما لتلك الصفة في كل ما يروى عنها وينسب اليه ، فالمشهور بالكرم تنسب اليه المكارم جميعا بغير سند ، والمشهور بالشجاعة يذكر كلما ذكرت نادرة من نوادر الشجاعة ثم يذكر بعد ذلك كأنه هو صاحب تلك النادرة او صاحب نادرة مثلها ان لم تكن تفوقها وتزيد عليها في بابها .

وينبغي ان نذكر ان المسيحية وجدت قبل أن تقترن بها تلك المراسم والتقاليد ، وان المسيحيين الاوائل اعرضوا عن كثير منها واستنكروه ومنعوه ، ومنهم من كان يحرم الاحتفال بمولد للمسيح في يوم كائنا ما كان ، وعلى راسهم اوريجين الفقيه العظيم . وقد مضت ثلاثة قرون قبل ان تحتفل كنيسة من الكنائس المعتمدة بعيد الميلاد في تاريخ من التواريخ ، ثم اختلفت الكنائس فاحتفلت الكنيسة الشرقية بالميلاد في السادس من شهر يناير واحتفلت به الكنيسة الغربية في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر ، ويرجح انها اختارت هذا اليوم لتصرف

المسيحيين عن حضور المحافل الوثنية التى كانت تتخذه عيدا للشمس وتعلن فيه الافراح بانتصار النور على الظلام ، لان الاعتدال الخريفى هو الموعد الذى يقصر فيه الليل ويطول النهار .

ولا يخفى ان بولس الرسول قد ولد فى طرسوس وهى مركز من مراكز الديانة المثرية ، فليس من المستغرب ان تعلق بذهنه بعض مصطلحاتها وعاداتها ، وان يكون قد تقبل بعضها تيسيرا لاقناع اتباعها بالدعوة الجديدة ، فلم يزل من سياسة التبشير فى جميع الدعوات ان تيسر فى هذا الباب ما يستطاع تيسيره ، وقد ظلت هذه السياسة مرعية عدة قرون ، اذ نقل الراهب بيد Bade فى تاريخ الكنيسة الانجليزية خطابا لغريغورى الاول (تاريخه سنة ٦٠١ ميلادية) يستشهد فيه بنصيحة المستشار البابوى مليتس mellitus الذى كان ينهى عن هدم المعابد الوثنية ويرى الابقاء عليها « وتحويلها من عبادة الشياطين الى عبادة الاله الحق ، كى يهجر الشعب خطايا قلبه ويسهل عليه غشيان المعاهد التى تعود ارتيادها » (١)

ولا خلاف فى تكرار العدد « اثنى عشر » فى كثير من الديانات ، ولكن تكراره هذا لا يستلزم ان يكون كل معدود به خرافة او اسطورة غير تاريخية ، وقد كان خليقا بأصحاب المقارنات والمقابلات ان يذكروا هذه الحقيقة بصفة خاصة ، اذ اقرب المؤرخين اليهم سوتنيوس صاحب تاريخ « القياصرة الاثنى عشر » وكلهم من « الشخصيات التاريخية » .

وفى تاريخ الاسلام تفصيل مذهب الشيعة الامامية - وهم يدينون بالولاء لاثنى عشر اماما معروفين بأسمائهم ليس منهم

---

(١) كتاب من الوثنية الى المسيحية فى الدولة الرومانية (الفصل الثانى)
Paganism into Christianity in the Roman Empire by Hyde

من يمكن ان يقال فيه انه شخصية غير تاريخية » .

على ان النقاد الذين شكوا فى وجود السيد المسيح قد شكوا كذلك فى وجود يوشع بن نون وظنوا فيه كما ظنوا فى السيد المسيح انه رمز من رموز العبادات الشمسية لانه يسير الشمس ويقفها عن مسيرها ، ولم يصل الى علم هؤلاء النقاد ان اسم يوشع بن نون وجد منقوشا على حجر عند « نوميديا » بشمال افريقية حيث اقام الفينيقيون مستعمرتهم « قارة حداشة » التى عرفت فيما بعد باسم قرطاجة ، وعلى ذلك الحجر الذى كشف (سنة ٥٤٠ ميلادية) كتابة بالفينيقية يقول كاتبوها « اننا خرجنا من ديارنا لننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يوشع ابن نون » (١) ... وليس كاتبو هذا الكلام عن النبى الاسرائيلى ممن يتهمون بالحرص على اثبات وجوده ونفى الشبهات عن سيرته وتاريخه .

وقد تعب اصحاب المقارنات والمقابلات كثيرا فى اصطياد المشابهات من هنا وهناك ولم يكلفوا انفسهم جهدا قط فيما هو اولى بالجهد والاجتهاد ، وهو استخدام المقارنات والمقابلات لاثبات سابقة واحدة مطابقة لما يفرضونه عن نشأة المسيحية ، فمتى حدث فى تاريخ الاديان ان اشتتانا مبعثرة من الشعائر والمراسم تلفق نفسها وتخرج فى صورة مذهب مستقل دون ان يعرف احد كيف تلفقت وكيف انفصلت كل منها عن عبادتها الاولى ؟ ومن هو صاحب الرغبة صاحب المصلحة فى هذه الدعوة ؟ واى شاهد على وجوده فى تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد ؟ وكيف برز هذا العامل التاريخى الدينى الخطير على حين فجاة قبل ان ينقضى جيل واحد ؟ ولماذا كان يخفى مصادر الشعائر والمراسم الاولى ولا يعلنها الا منسوبة للسيد المسيح ؟

(١) الفصل الرابع من المجلد الثالث من صحائف شمبرز Chamber's papers

ان استخدام المقارنات والمقابلات فى تحقيق هذه السابقة أولى بمؤرخى الاديان من كل ماجمعوه او فرقوه لينتهوا به الى فرض منقطع النظير .

***

على أن صناعة النقد التاريخى تتهم نفسها بالعجز البالغ اذا لم تستطع أن تعتمد على الكلام المروى فى تقرير « شخصية القائل » وتحقيق مكانه من التاريخ ، وبين أيدينا كلام السيد المسيح كما روته الاناجيل ينبئنا فى هذه الناحية عن كثير

فمهما يكن من فصل القول فى استقلال كل انجيل أو اعتماد بعضها على بعض فهناك علامات واضحة لايمكن ان يقصدها كتاب الاناجيل ، لأنها علامات نفهمها الآن وفاقا لما درسناه من تطور الدعوة المسيحية ، ولم يكن لها محل فى رؤوس الرواة المشاهدين أو الناقلين

فان روايات الاناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة الى نهايتها ، ومن التطور المعقول أن تبتدىء الدعوة قومية عنصرية ثم تنتهى انسانية عالمية ، وأن تبتدىء فى تحفظ ومحافظة ثم تنتهى الى الشدة والمخالفة ، وأن تبتدىء بقليل من الثقة فى شخصية الداعى ثم تنتهى بالثقة التى لاحد لها فى نفوس الاتباع والاشياع ، وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الاناجيل دون أن يتعمد كتابها تطبيق أحوال التطور أو تلتفت أذهانهم الى معنى تلك الاحوال

وربما كان أوضح من هذا فى الابانة عن شخصية الداعى أن أقواله تتضمن نقدا لجميع المذاهب التى كانت شائعة فى عصره ، وان هذه الاقوال تشير الى وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود فى غير تلك الشخصية

فالاقوال المسيحية تنتقد الفريسيين ولكنها لاتصدر فى نقدهم

عن وجهة نظر الصدوقيين أوالسامريين

وتنتقد أصحاب النصوص ولكنها لاتصدر فى نقدهم عن وجهة نظر الاباحيين والمتحللين

وتنتقد الآسين المتعصبين ولكنها لاتدين بآراء الفلاسفة أو الابيقوريين والرواقيين

وتنتقد السامريين ولكنها لاترفض السامرية بتاتا ولا ترفض غيرها من النحل كل الرفض من جانب محدود

وتستشهد بأقوال موسى وابراهيم والانبياء ولكنها لاتتقيد بكل قول منها تقيد المحاكاة ولاتقتدى بها اقتداء التابع للمتبوع

واذا جمعنا وجوه النقد جملة واحدة أمكن أن نردها كلها الى وجهة نظر متناسقة وقوام شخصى مرسوم ، وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغى ان يقع ، لأن التناسق الذى يجرى مجرى الاعمال الآلية على وتيرة واحدة لايوافق طبيعة الدعوات الحية المتقدمة ، ولاسيما الدعوات فى عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثبيت

هذه علامات « موضوعية » لهاشأنها الاكبر فى الابانة عن شخصية السيد المسيح ، وأصدق تلك العلامات ، بعد هذا كله ان الدعوة جاءت فى ابانها وفاقا لمطالب زمانها ، بحيث تكون الغرابة ان يخلو الزمن من رسول يقوم بالدعوة ويصلح لأمانتها ، لا أن يوجد الرسول ونستغرب أن يكون ، ولو أن مؤلفا بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رسولا يوافق رسالته المنشودة لوقف به الخيال دون ذلك التوفيق المطبوع

صورة وصفية

من أقدم الصور الوصفية التي حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون في القرن الرابع ورغم رواتها انها كتبت بقلم بيليوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبل الدولة الرومانية، رفعها الى مجلس الشيوخ الروماني في عصر الميلاد ، وجاء فيها : « انه في هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمى يسوع ويدعوه تلاميذه بابن الله . وكان للرجل سمت نبيل وقوام بين الاعتدال ، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معا ، فيحبه من يراه ويخشاه . شعره كلون الخمر منسرح غير مصقول ، ولكنه في جانب الأذن أجعد لماع ، وجبينه صلت ناعم ، وليس في وجهه شية ، غير انه مشرب بنضرة متوردة ، وسيماه كلها صدق ورحمة ، وليس في فمه ولا أنفه مايعاب ، وعيناه زرقاوان تلمعان . مخيف اذا لام أو أنب ، وديع محبب اذا دعا وعلم ، لم يره أحد يضحك ، ورآه الكثيرون يبكي ، وهو طويل له يدان جميلتان مستقيمتان ، وكلامه متزن رصين لايميل الى الاطناب ، وملاحته في مرآه تفوق المعهود في أكثر الرجال »

الا أن هذه الرواية مشكوك فيها وفي اسنادها التاريخية ، ومثلها جميع الروايات التي تداولها الناس في ذلك العصر أو بعده ، ومنها مالايعقل ولا يظن به الا أنه مدسوس من اعداء المسيحية في العصور الاولى ، كقول بعضهم انه كان قميئا أحدب دميم الصورة . فان الشريعة الموسوية كانت تشترط في الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من العيوب ، ولا ترسم لخدمة الدين من يعيبه نقص أو تشويه ، فمن غير المعقول أن يتصدى للرسالة من يعاب بالحدب والدمامة والقماءة معا ، وان يخلو الكلام

المنسوب الى خصومه أو أنصاره من الاشارة الى ذلك فى معرض المذمة أو معرض العجب ومداراة العيوب الجسدية بالمحاسن الروحية

نعم ان الانبياء فى بنى اسرائيل لم يكن لهم راسم يرشحهم للنبوة بشروط معلومة كشروط الكهانة ، ولكن اتصاف النبى بالدمامة والحدب لا يبقى فى طى الكتمان مع التحدث عنه وعن المشوهين واصحاب الآفات الذين يبرئهم ويساقون اليه ليشفيهم من الشوهة والآفة

وليس فى الاناجيل اشارة الى سمات السيد المسيح تصريحا او تلميحا يفهم من بين السطور ولكن يؤخذ من كلام نثنائيل حين رآه لاول مرة انه رائع المنظر ملكى الشارة . اذ قال له « انت ابن الله . انت ملك اسرائيل » ... وأراد المسيح ان يفسر ذلك بانه تحية يجيب بها الفتى على تحيته ، ولكنها على أية حال تحية لائقة للاحدب ولا للدميم المشنوء

غير اننا نفهم من أثر كلامه انه كان مأنوس الطلعة يتكلم فيوحى الثقة الى مستمعيه ، وذلك الذى قيل عنه غير مرة انهم اخذتهم كلماته ، لانه « يتكلم بسلطان » وليس كما يتكلم الكتبة والكهان

وقد كان ولا ريب فصيح اللسان سريع الخاطر ، يجمع الى قوة العارضة سرعة الاستشهاد بالحجج الكتابية التى يستند اليها فى حديث الساعة كلما فوجىء باعتراض او مكابرة ، وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتجلة ، لان وصاياه مصوغة فى قوالب من الكلام الذى لا ينظم كنظم الشعر ولا يرسل ارسالا على غير نسق ، ويغلب عليه ايقاع الفواصل وترديد اللوازم ورعاية الجرس فى المقابلة بين الشطور

وذوق الجمال باد فى شعوره كما هو باد فى تعبيره وتفكيره ،

والتفاته الدائم الى الازهار والكروم والجنائن التى يكثر من التشبيه بها فى امثاله ، عنوان لما طبع عليه من ذوق الجمال والاعجاب بمحاسن الطبيعة ، وكثيرا ما كان يرتاد المروج والحدائق بتلاميذه ويتخذ من السفينة على البحيرة - بحيرة طبرية - منبرا يخطب منه المستمعين على شاطئها المعشوشب كانما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفقات الموج وخفقات النسيم . ولم يؤثر عنه انه الف المدينة والحاضره كما كان يالف الخلاء الطلق حيث يقضى سويعات الضحى والاصيل او سهرات الربيع فى مناجاة العوالم الابدية على قمم الجبال وتحت القبة الزرقاء

وقد اطبقت روايات الاناجيل على انه كان عظيم الاثر فى نفوس النساء ، يتبعنه حيث سار ويصغين اليه فى محبة ووقار ، ومن عظماء الرجال من تتعلق بهم نظرات النساء كانهن ماسورات مسحورات ، ومنهم من تتعلق بهم نظرات النساء لانهم يلعجون افئدتهن بخوالج اللحم والدم ونزعات الغرائز والاهواء ، ولكن الرجل العظيم الذى يجتذب اليه قلوب النساء لانه يشيع فيها السكينة ويبسط عليها الطمانينة ويغمرها بحنان الطهر والقداسة ويريحها من وساوس الضعف والفتنة ، اعظم فى نفوسهن اثرا من كل عظيم ، وهو الذى من اجله ينسين الجسد ويرتفعن بحبهن له فوق مناط الظنون

لهذا لا نستغرب ان يقال ان قرينة بيلاطس كانت تحذر قرينها ان يمس ذلك الانسان الصالح ، وان تغلب محبة التقوى على محبة الدنيا فى نفوس تبعته وهجرت زينة الحياة ، ومنهن الغوانى اللواتى تستدعيهن الحياة كل يوم بداع مطاع

وقد وصف نفسه بانه «وديع متواضع الفؤاد» وقال ان

الوداعة مفتاح السماء فلا يدخلها غير الودعاء ، وتمثلت الوداعة فى كثير من اقواله وافعاله ، ومنها الرحمة بالخاطئين والعاثرين ، وهى الرحمة التى تبلغ الغاية حين تأتى من رسول مبرا ن الخطايا والعثرات

الا ان هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة ، وكانت شيمته فى رسالته شيمة الرسل جميعا حين تعلو عندهم اواصر الروح على اواصر اللحم والدم ، وتتقدم حقوق الهداية على حقوق الآباء والامهات .. « من هى امى ومن هم اخوتى ؟ ... من يصنع مشيئة ابى الذى فى السموات هو اخى واختى وامى » ... « من ليس معى فهو على ومن لا يجمع معى فهو يفرق » .. « وان كان احد يأتى الى ولا يبغض اباه وامه وامراته واولاده واخوته ، حتى نفسه ، فما هو بقادر ان يكون لى تلميذا »

وهذه واشباهها من الشروط الصارمة التى كان يفرضها على مريديه هى الشروط التى لا غنى عنها لكل دعوة مستبسلة امام السيطرة والجبروت ، ومهما يكن فيها من اساليب المجاز والكناية فالقول الصراح الذى لا خلاف عليه ان التجرد من اواصر المنافع والشهوات اول الآداب التى يتأدب بها الجنود فى كل ملحمة : جنود الحرب فى ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة ، فما بالنا بجنود الحرب فى فتوح الروح ومطالب الكمال

ولقد كان عليه السلام يأمرهم ان يقدموا على المخاطر فى سبيل الحق والهداية ، ولكنه كان يقيم لهم حدود المخاطرة حيث يجب الاقدام على الموت وجوبا لامثنوية فيه ، فالخطر على الروح اولى بالاتقاء من الخطر على الجسد . وهان موت الجسد

اذا كان موت الروح فى الحسبان، فان لم يكن خطر على الجسد ولا على الروح فلا خير فى المخاطرة... وكونوا بسطاء كالحمائم وحكماء كالحيات

وفى انجيل مرقس أن السيد المسيح نجا بنفسه الى جانب البحر حين علم ان الفريسيين والهيروديين يأتمرون به لاهلاكه وفى سائر الاناجيل انه كان يشكو حزنه وبثه حين احدق به الخطر، وانه كان يدعو الله ان يجنبه الكاس التى هو وشيك ان يتجرعها، وانه كان يقول لتلاميذه: «نفسى جد حزينة... امكثوا ها هنا واسهروا معى»... وانه كان يعتب عليهم حين يراهم نياما على مقربة منه وهو يعانى برحاءه واشجانه ويقول لهم: ما قدرتم ان تسهروا معى ساعة واحدة؟... ثم قال لهم آخر الامر وقد حم القضاء: الآن ناموا واستريحوا!

فليس الاقدام على الجهاد ان تتجرد النفس من طبيعتها فى وجه المخاوف والمتالف، وليس محظورا على النفس فى سبيل ذلك الجهاد ان تأخذ بالحيطة او تلوذ بمن تحب وتستمد العون من عواطف المحبين، وانما المحظور عليها ان تخشى الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح، وفى غير ذلك لا خشية ولا مخاطرة ولا ملام

ومن تحصيل الحاصل ان يقال ان السيد المسيح خلق على فطرة امثاله من اصحاب الرسالات الكبرى الذين لا ينقطعون لحظة عن الرياضة الروحية، وهذه الرياضة الروحية هى التى تجعلهم منذ صباهم عرضة للقلق والتنقيب فى اعماق ضمائرهم لعلهم يعرفون مداهم من الاقتراب او الابتعاد عن طريقهم الى الله. فهم يشرفون على النور حينا ويحتجبون عنه حينا ويعودون الى طواياهم فى كل حين يحاسبونها على اشراقه او

احتجـــابه ، ويستبشرون تارةلانهم يلمحون معالم الطـريق ، وينحون على انفسهم باللائمـة تارة لانهم يتهمونهـا بالزيغ عن الجادة والانحراف عن السواء ،وفيما بين هـــذا القلق تلك البشارة تنمو النفس على الرياضة وتتهيأ للثبـات والاســتقرار وتتخذ العدة لليقين والايمان

لا ريب ان هذه الرياضة هي التى عناها كتاب الاناجيل بفترة التجربة فى البرية حيث تعيش الشياطين، وما للشياطين هنا من وساوس غير وساوس القلق وصراع الفتنة وغواية الطمع بين الاقدام والاحجام، حيث تطمئن النفس ساعة ثم تمتحن هذه الطمأنينة بالتجربة ســاعة اخـرى ، ثم تعاف التجربة لانها تسليم بالشك حيث ينبغى التسليم بالثقـــة رسالة الله حقيقة بكل فـداء واهل لكل ثمن وكل جزاء، ولكن من لك ايها الضـمير ، انك انت المختار لرســالة الله ؟ او تطلب البرهان ؟ فمن أين لك ن تجمع بين طلب البرهان وبين صدق الايمان

وقد تغلب المسيح على هذه المحنة كما تغلب عليهـا الانبيـاء المرسلون بعد قلق وجهاد وصبر اليم ، ونحسبه بعـــد ذلك كان يعالج القلق من هذا القبيل بالتسليم للواقع ، وكان يستلهم الحوادث ارادة الغيب حين تحتجب عنـه هذه الارادة ، فيترك الحـوادث تمضى ويمضى معهـا وينتظر ماتحكم به المقادير ، وفى هـــذه المواقف يخيفه فى اعماق طويته ان يطلب البرهان الالهى لانه لا يريد ان يجرب الهه ، ويخيفـه ان يحجم ويتهم ضميره بالاحجام مخافة العواقب ، فذاك مسعاه الى بيت المقـدس فى اخريات رسالته مرتين : مرة وهو يدخلها بين الترحيب والتهليـل ، ومرة وهو يدخلها بين النذر والشباك وخيـانة الاصحاب ودسيسة

كانت هذه الخطوات من خطوات التسليم الذى ينطوى فيه حب الاستلهام والاستطلاع: خير من طلب البرهان وخير من النكوص ما لم يكن هنالك برهان ، وما قال قائل فى أمثال تلك المواقف ! ليفعل الله مايشاء، الا وهو يترك للمقادير أن تظهر من مجرى الحوادث حيث تجرى بها مشيئة الله

فى لحظات كهذه اللحظات يغوص الانسان كله فى أعماق ضميره ، ولعل لحظة من تلك اللحظات هى التى قال فيها الناظرون اليه : انه غائب عن نفسه ، أو هى التى صمت فيها لا يحير جوابا لانه هو يترقب جواب الغيب المنظور مما عسى ان يكون عما قريب ، أو هى التى اقدم فيها لا يبالى بسلامته وعاقبة امره ، ولم يكن فكره قاصرا عن استطلاع العواقب جميعا فى موقف من تلك المواقف الحاسمة ، ولكن المشكلة الكبرى كلها فى استطلاع العواقب ، فهل تراه لا يقدم على العواقب الا بضمان من البرهان ؟

ان اعمال اصحاب الرسالات لا تفهم على حقيقتها ما لم نفهم معها هذه القاعدة الاساسية فى طبيعة الرسل ، وهى ان الشك اخوف ما يخافونه ، وان استبقاء الايمان غاية ما يبتغونه ، وكثيرا ما يقدمون على جسام الامور لان التسليم اقرب الى الايمان ، ولان الاحجام شك او انتظار برهان، والشك وانتظار البرهان يستويان فى بعض الاحيان

وقد تواترت الروايات على أن السيد المسيح كان يبتهل الى الله فى اخريات رسالته قائلا :« اللهم جنبنى هذه الكأس ، لكن كما تريد انت لا كما اريد »

وفى هذا الابتهال مفتاح كل عمل اقدم عليه بعد ذلك ، او

اقدم عليه فى مثل هذا الموقف فانه لم يتجنب الكأس كما يريد بل ترك لله ان يجنبه اياها كما اراد ، وموضع الشبهة فى نفسه الشريفة ان السلامة هى مايريده ، وان النكول هو طريقه الى اجتناب الكأس ، فليكن مسيره اذن فى غير هذه الطريق، وليكن التسليم هو طريق الايمان

الباب الثاني
الـــدعـــوة

تواريخ الاديان جميعا تثبت الحقيقة الواضحة التى لامغزى لكتابة التواريخ مع الشك فيها ، ونعنى بالحقيقة الواضحة اطراد السنن الكونية فى الحوادث الانسانية الكبرى ، فلا يحدث طور من اطوار الدين او الدنيا الا سبقته مقدماته التى تمهد لحدوثه ، وجاء سزيانه فى العالم على وفاق لوازمه ودواعيه

وليست المسيحية شذوذا عن هذه القاعدة ، بل هى من اقوى الظواهر التى تؤيدها وتسرى فى مسراها ، وسنرى بعد الاحاطة بالفصول السابقة والفصول التالية ان الصلة لم تنقطع كل الانقطاع بين العصرين ، وان العصر القديم كان يلتفت بنظره شيئا فشيئا الى وجه العصر الجديد ، وسنرى غير مرة فى هذا الكتاب ان الدعوة المسيحية جاءت فى ابانها وفاقا لمطالب زمانها

وليس أقرب الى جلاء هذه الحقيقة من تلخيص صورة العصر كله فى كلمات معدودات نحصر بها آفاته البارزة ونهتدى بهذه الآفات الى علاجها الموكول الى العقيدة

فما هى آفة العصر التى برزت فى التاريخ واتفقت عليها اوصاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين او من غير طريق الدين ؟

كانت له آفتان بارزتان : احداهما تحجر الاشكال والاوضاع فى الدين والاجتماع ، والاخرى سوء العلاقة بين الامم والطوائف مع اضطرارها الى المعيشة المشتركة فى بقعة واحدة من العالم المعمور ، وعلى الخصوص تلك الاقاليم التى نسميها اليوم بالشرق الادنى

تحجرت الاشكال والاوضاع وغلبت المظاهر على كل شىء ، وتهافت الناس على حياة القشور دون حياة اللباب ، فكل مغانم

الحياة عندهم سمت وزينة وأبهة ومحـــافل وشارات ، وانتقلت الحضارة من الداخل الى الخارج او من النفس الى الجسد ، كما يحدث دائما فى أعقاب الحضارات ، تبدأ فى عالم الفكر والوجدان ثم تستفيض العمارة فتميـــل الى التجسم والتضخم وتفقد من قوة النفس والضمير بمقدار ماتكسب من مظاهر المادة والمال

تجمعت الثروة والكسـل فى ناحية وتجمعت الفاقة والجهـد المرهق فى ناحية اخرى . فغرق السادة فى الترف ، وغرق العبيد والارقاء فى الشـقاء ، وفسدت حياة هؤلاء وهؤلاء

وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالا ومراسم خلوا من المعنى والغاية ، وتحجرت معه الشرائع والقوانين ، فلم يكن غـريبا ان تنقش على حجارة وان يرتفـع ميزانها فى يدى عدالة معصوبة العينين ، وان تفرغ الكفتـان فتستويان لانهما فارغتان !

وتحجرت العقائد الوثنية فى الدولة الرومانية وتحجـرت العقائد الكتابية بين بنى اسرائيل فأصبح فرق الشعرة بين النصين يقيم الحرب الحامية عـلى قدم وساق ، واصبحت التقوى علما بالنصوص وبحثـا عن مراسم الشريعة ، وغلب « المظهر » على المتشبثين بالنصوص والمتصرفين فيها ، فلا خلاف بينهم فى طلب المظهر وان اختلفوا على اللفـظ والتأويل

اشكال وقشور ،ولا جوهـر هناك ولا لباب

وساءت العلاقة بين الامة والامة وبين الطائفة والطائفة ، وبلغ الحس بسوئها غايته ، لان الذين يعانون من سوئها يعيشون فى نطـاق واحد ويخضعون لحكم واحد ، فلا فكاك منه بحال

دنيا آفتها مظـاهر الترف ومظاهر العقيدة ، ومن وراء ذلك باطن هواء ، وضمير خواء ، فـلاجرم يكون خلاصها فى عقيـدة لاتؤمن بشىء كما تؤمن ببساطة الضمير ، ولا تعرض عن شىء كما تعرض عن المظاهر ،ولا تضيق بخلاف كما تضيق بالخلاف عـلى

النصوص والحروف وفوارق الشعرة بين هذا التاويل وذلك التحليل

عقيدة قوامها ان الانسان خاسر اذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه ، وان ملكوت السماء في الضمير وليس في القصور والعروش ، وان المرء بما يضمره ويفكر فيه وليس بما ياكله وما يشربه وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد والمحاريب

هل كانت للدنيا آفة غير آفة المظاهر والتناحر على المظاهر؟ وهل كان لتلك الآفة خلاص غير ذلك الخلاص ؟

وهل كانت المسيحية الا العقيدة التي تدعو الى خلاصها من حيث يرجى وهيهات لها في غيره خلاص ؟

وتقطعت الاسباب بين الامم وبين الطوائف وبين الآحاد ، واتسم العصر كله بالعصبية في السائد والمسود والحاكم والمحكوم

الروماني سيد العالم بحقه ، والاسرائيلي سيد العالم بحق الهه ، واليوناني والاسيوي والمصري كل منهم سيد الامم وكل منهم مثال الهمجية ، والمولى يخرج العبد من زمرة الآدميين ، والعبد يمقت السيد مقت الموت أو يفضل الموت على الرق الذي يجمع عليه بين الذل والالم والجوع ، وأبناء الامة الواحدة طوائف طوائف تشيع بينها التهم وتعمها البغضاء

ويأتي الى هؤلاء البشير المنظور فماذا يقول لهم ان لم يقل لهم ان الله رب بني الانسان وانه هو ابن الانسان ، وان الحب افضل الفضائل وافضل الحب حب الاعداء ، وأن الكرم أن تعطى من يسالك واكرمه ان تعطى فوق ماتسال وأن تعطى بغير سؤال ، وان ملكوت السماوات لاتفتحه الاموال ، وأن مالقيصر لقيصر وما لله لله ، وان المجد الذي يتنازعه طلابه لايستحق ان يطلب ، وان المجد الذي يستحق ان يطلب لاموضع فيه لنزاع

ولم يات هذا البشير فضولا على غير انتظار : أبناء قومه موعودون به في ذلك الزمن ، وابناء الاقوام ينتظرون شيئا لايعرفونه ولكنهم

يعرفون ان زمانهم لايطاق ، وان حالهم لابد لها من تحويل
أفلست العبادات ، وجاء أحد المعبودين ـ قيصر رومة ـ فأحرق الاسفار والنبوءات، ولم يبق منها الا ماهو أقرب الى الفن فى محراب ابولون اله الفنون

أما العبادة التى لم تفلس فقد كان رأس مالها كله نسيئة منتظرة .. وهذه علامات السداد يستبشر بها المصدق ولا يمجدها المنكر ، وانما هو خلاف على العلامات، وعلى مصداقها من العيان والسماع

لقد كانت الدعوة طباق الزمن وقد بدأت فى أوانها لم تتقدم ولم تتأخر ، وكفى بذلك برهانا على موقعها الصحيح من التاريخ، فقد كان بلاء الناس انهم خربوا باطنهم وعمروا ظاهرهم ، فجاءهم الرجاء الذى يصلح لذلك البلاء : بشارة لاتبالى أن يخرب ظاهر الدنيا كله اذا سلم للانسان باطن الضمير

وهذه هى دعوة السيد المسيح كما ساقها الغيب وترقبها العالم الذى سيقت اليه ، ولو لم تكن هى طلبته يومئذ لما استولت عليه قبل ان تنقضى عليها أربعة قرون

وقد لقيت الدعوة أشد ما يلقاه دين من مقاومة ... فلا يفهم من هذا انها شاعت فى العالم الانسانى على الرغم منه أو على غير حاجة منه اليها ، فانما الدين المطلوب هو الدين الذى تعدو أسباب قبوله على أسباب رفضه ، وليس هو الذى يقبله الناس جميعا طائعين مستسلمين كأنه غنى عمن يدعو اليه ، وما من دعوة قط تستغنى من مبدأ الامر عن الدعاة

ولقد تصدى رسول الاخاء والسلام لدعوته وهو يعلم انها أخطر الدعوات وانها اخطر جدا من دعوة البغضاء والقسوة ، لان الذى يدعو الى الاخاء يدعو الى اقتلاع جذور البغضاء ، والذى يدعو الى السلام يدعو الى تحطيم سلاح الاقوياء ، وليس اقتلاع جذور البغضاء بالامر الهين وليس تحطيم سلاح الاقوياء علالة حالم

وليس السبيل الى ذلك سبيل الرضى والوفاق

لهذا كان يقول « جئت لالقى على الارض نارا فحبذا لو تضطرم» . وكان يسأل تلاميذه وسامعيه: « أتحسبونني اتيت لامنح الارض سلاما ؟» ثم يبادر فيقول: «كلا! وانما هو الصدام والانقسام خمسة فى البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين ، واثنان على ثلاثة : ينقسم الاب على ابنه والابن على أبيه ، وتنقسم الام على بنتها والبنت على أمها ، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة »

ولقد كان كلام كهذا يقال على ألسنة بنى اسرائيل كما قال ميخا « مافى الناس من مستقيم . كلهم يكمن للدماء وينصب الشباك .. لاتأتمنوا صاحبا . لاتثقوا بصديق واوصد فمك عن تلك التى تضطجع فى حضنك ، ان الابن بأبيه مستهين ، وان البنت على امها ثائرة ... والكنة على الحماة ، وللانسان من أهل بيته اعداء

ولكن هذه الاقوال وما شاكلها كانت وصفا لما هو حادث ولم تكن نبوءة عما سيحدث من الشر فى سبيل الخير ، ومن البغضاء فى سبيل الاخاء ، ومن الحرب سعيا الى السلام

وقد صحت نبوءة الرسول فى بنى قومه فناصبوه العداء لانه يبسط الدعوة الى الاخاء ويعم بها « طيور السماء » وهم رمز للطراق فى جميع الارجاء

ومن الواضح انه كان يؤثر قومه بالخير لو استمعوا اليه واتبعوه ، ولكنهم مدعوون الى وليمة يرفضونها فمن حضرها بغير دعوة فهو اولى بها ، وكذلك ضرب لهم المثل بوليمة العرس وقد أرسل الداعي عبده فى طلب ضيوفه « فقال هذا انى اشتريت حقلا وعلى ان اخرج فأنظره ،.. وقال ذاك : انى اشتريت أزواجا من البقر وسأمضى لاجربها ... فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات الى من تراه من المساكين .. فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما امرت ولا

يزال فى الرحبـــة مكان . قال السيد : فادع غيرهم من اعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى فلن يذوق عشائى أحد من اولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء.

ويمكن ان يقال فى وصف تلك الدعوة العامة كثير لايحصى عـلى حسب النظرة التى ينظر بهـــا القارىء الى كـــلام المسيح فى الاناجيل

يمكن ان يقال انها دعوة الى حين ينتهى وشيكا بانتهاء العـالم كله فى امد قريب ، ويمكـن ان يقال انها دعوة ملكوت يدوم ولا يعرف له انتهاء

ولكننا على التحقيق نطـــابق جوهرها كله اذا وصفناها بأنهـا « تغيير وجهة » وافتتاح قبلة ، ولاسبيل الى الجمع بين الوجهتين ولا الى التردد بين القبلتين ، فلن يخدم احد سيدين ...

قبلة الروح أو قبلة الجسد

قبلة الله او قبلة « مامون »(١) اله المادة والمال

معبد الضمير أو معبد الصخر والخشب

هنا أو هناك ..

فالمهم هو الاتجاه اين يكون ، والى اى امد يدوم ، وكل مايلى ذلك من تفصيل فهو خطوات الطريق تتسع أو تضيق وتسرع أو تتريث متى استقبل السالك قبلته وأدار ظهره لما وراءه ، ولا بد من المفترق الحاسم بين القبلتين ، ولا بد من خيرة بين السيدين !

---

(١) كلمة آرامية ترمز الى المطامع الدنيوية والشهوات الجسديه ، وتطلق الآن فى اللغات الاوربيه على اله المادة والمال ..

اختيار القبلة

كان الموقف ـ كما قدمنا ـ على مفترق الطريق ، وكان على السالك أن يختار وجهته وقبلته ، ويحسب لها كل حسابها ، فيأخذها بكل ما لها وما عليها أو يرفضها بكل ما لها وما عليها ، ويجمع قلبه كله فى خدمة الرب الذى يعبده ، فليس فى مقدوره أن يعبد ربين وأن يدين بالخدمة والاخلاص لسيدين

وعلى هذا الوجه وحده تفهم الدعوة المسيحية على جليتها ، ويزول اللبس عنها ، بل يزول عنها ما يبدو عليها من النقائض والاضداد ، لانها عند تصحيح الاتجاه تعتدل على طريق مستقيم

اذا كان الجيل مقبلا على محراب «مامون» بقلبه وقالبه ، فالوجهه الاخرى على الطرف الآخر من هذا المحراب

ان عباد « مامون » غارقون فى هموم الحطام ، لا يفرغون لحظة لغير الشهوة والطعام ، فالذى يستدبر هذه القبلة فلتكن قبلته حيث لا ظل لذلك المحراب ولا أنقاض لأركانه وأوثانه ، وحيث المطلوب كله هم الروح والضمير ، وحيث المنبوذ كله هم المادة والجثمان

أو كما قال لهم الرسول البشير : « الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس .... وزنابق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تغزل ، وسليمان فى كل مجده لا يلبس كما تلبس واحدة منها ، فاذا كان العشب الذى يقوم اليوم فى الحقل ويطرح غدا فى التنور يلبسه الله فما أحراكم أن يلبسكم يا قليلى الايمان ... »

نعم . واذا تهالكت أمم العالم على الطعام والشراب وقلق العيش فاطلبوا أنتم ماهو أفضل وأبقى ... اطلبوا كنوزا لا تنفد فى

سماواتهـــا حيث لا تنـالها يدالسارق ولا يبليها السوس

من استدبر قبلة مامون فهذهى القبـلة التى يتجـه اليها ، وهذه هى غايتها القصوى ، وان لم تكن هى كل خطوة فى الطريق

وعلى هذا الوجه يفهم السامع رسول الرحمة حيث يقول :

« ما هو بقــادر أن يكون لى تلميذا من لا يقدر على أن يبغض أباه وأمه وامرأته وبنيه واخوته، بل يبغض نفسه

« وما هو بقـادر أن يكون لى تلميذا من لا يقدر على أن يحمل صليبه ويتبعنى فى طريقى »

قائل هذا هو القائل :

« أيها السامعون : أحبوا أعداءكم ، احسنوا الى مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم، ادعوا لمن يسيئون اليكم ، من لطمك على خـدك الايمن فحول له الأيسر ، ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك ، وكل من سألك فاعطه ، ومن أخذ مافى يدك فلا تطالبه ، وماتريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم ، وأى فضل لكم ان أحببتم الذين يحبونكم ؟ ان الخطاة ليحبون من يحبهم .. وأى فضل لكم ان أقرضتم من يردون قرضكم ؟ ان الخطاة ليقرضون من يقارضهم.. بل تحبـون أعداءكم وتحسنون وأنتم لا ترجون أجركم ... »

وقائل هذا هو القائل :

« ان أخطأ أخوك فوبخه . وان تاب فاغفـر له ، وان أخـطأ اليك سبع مرات وتاب اليك سبع مرات فتقبل منه توبته »

وهذا نقيض ذاك

هذه الرحمة التى تعم الاعداء والاحباب نقيض البغضـاء التى تشمل بها أحب الناس الى الناس: الآباء والامهـات والابناء وذوى الرحم والقربى

انهما تتناقضان غاية التناقض الا على وجه واحد ، وهو توجيه

النظر الى قبلة غير القبلة ووجهة غير الوجهة ، وغاية قصوى غير تلك الغاية القصوى التى تستدبرها

واذا افترقت الطريقان ووجب عليك أن تمضى هنا أو هناك ، فلا جناح عليك أن تمضى حيث سددت خطاك ولو كرهت نفسك وحملت صليبك وانقطعت عن ذويك

وما من احد يأبى أن يحب ذوبه وأن يحبه ذووه اذا ساروا حيث سار واستقاموا معه حيث استقام ، فليس عن هذا يجرى الحديث ولا فى هذا موضع للنصيحة والتفضيل ، وانما يجرى الحديث ويستمع النصح حيث يتعارض الطريقان ويتناقضان

انما يجرى الحديث ويستمع النصح حيث تتقابل القبلتان ، وحيث تمضى هنا مع الله وتمضى هناك مع مامون

ولا تناقض فى هذا المفترق بين نصيحة من تلك النصائح أو آية من تلك الآيات ، فكلها على نهج واحد من أول الطريق الى غايته ، ولهذه الغاية القصوى ينبغى أن يتحول من يممها بخطاه وآثرها بهواه

وفى مثل من الامثلة التى تعمر بها أقوال السيد المسيح عبر لهم عن الموقف كله بأن يحسبوا النفقة كلها قبل بناء حجر فى البرج الشامخ

« من منكم — وهو يريد أن يبنى برجا — لا يجلس ليحسب نفقته ويعلم هل لديه ما يلزم لكماله ؟ »

فهذا حساب التكاليف جميعا قبل وضع الحجر الاول فى أساس البناء ، والا فلا حجر ولا أساس ولا برج هناك ، وخير لمن تخذله القدرة وتعوزه النفقة أن يترك الارض والحجر والبناء

فمن نظر الى الارض فرأى شعابا تتقاطع ومفارق تختلف فليرفع نظره من تلك الشعاب ولينظر الى الأفق الذى تنص

اليه الركاب ، فهنالك القبلة التي يتلاقى عندها ماتشعب ، وينتهي اليها ما اعوج أو استقام من الدروب

ولقد كان المستمعون الى السيد المسيح ، وأولهم تلاميذه وأتباعه يعجبون منه لأمرين : ترحيبه بالأطفال الصغار وخطابه للمنبوذين المحقرين ، فانتهرهم حين رآهم يبعدون عنه أطفال القرى وقال لهم :

« دعوا الاطفال يأتون الى ولا تمنعوهم ... فمن لم يقبل على ملكوت الله طفلا فلن يدخل اليه »

وقال لقوم أيقنوا أنهم أبرار واحتقروا المشهورين بالذنوب :

« صعد اثنان الى الهيكل يصليان ، فريسي وعشار ..

« فأما الفريسي فراح يقول في صلاته : حمدا لك يا الهي ! اننى لست كسائر هؤلاء الخاطفين الظالمين الزناة ، ولا كمثل ذلك العشار ، أصوم في اليوم مرتين وأؤدي حق العشر عن كل ما اقتنيه

« وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه الى السماء وقرع صدره وابتهل الى الله : ارحمني يا الهي أنا الخاطيء ... فهبطا الى بيتيهما هذا مستجاب وذلك غير مبرور »

وتكررت هذه الامثلة فتكرر معها العجب من المستمعين اليه من آمن به وأحبه ومن كفر به وحنق عليه ، ولو أنهم اذ كانوا يعجبون ذلك العجب قد عرفوا رسالته واستقبلوا قبلته لما أنكروا عليه أن يشخص ببصره الى بعيد ، وأن يزهد في يومه ثم يمتد بالرجاء الى غده ، فانما في الغد يوم أولئك الاطفال المرتقب ، وانما يرجى لتبديل الحال من لا يعنيه من الحاضر الا أن يزول

وجماع القول أن الدعوة الجديدة ، كانت ككل دعوة جديدة غريبة مناقضة لما حولها ، ولكنها تنقض عنها كل غرائبها وتقائضها اذا نظرنا الى القبلة التي تستقبلها فهنالك تلتقي الشعاب ويحسن المآب .

تجارب الدعوة

استوفت الدعوة تجربتها فى فترة قصيرة لم تطل اكثر من ثلاث سنوات ، ولكنها كانت كافية . لانها كانت فى الواقع تجربتين ودعوتين ، قام بهما رسولان مختلفان فى الطبيعة والطريقة : وهما يوحنا المعمدان (يحيى المغتسل) وعيسى بن مريم

كان يوحنا المعمدان مثال الناسك الصارم الذى لايحابى ولا يتودد ، ينذر كثيرا ويبشر قليلا ، ويضع الفأس على أصل الشجرة ، ولا يبالى ان يلقى بها حطبا فى الاتون

ولد لشيخين كبيرين بعد يأس، كلاهما من سلالة الكهانة ابناء هارون : وهما زكريا واليصابات

وفى انجيل لوقا شرح لقصة هذا المولد فى شيخوخة الاب والام جاء فيه ان زكريا كان يتولى الخدمة الدينية فى نوبته فأصابته القرعة لدخول الهيكل واطلاق البخور ، فطال مكثه فى المحراب وجمهور المصلين يترقب ويتعجب ، حتى عاد اليهم صامتا لايتكلم ، فعلموا انه قد حلت به الرؤيا داخل المحراب ، ثم روى انه بصر على يمين المذبح بملك واقف فاضطرب وعرته رجفة فقال له الملك : لا تخف يازكريا . ان الله قد اجاب سؤلك وستلد امرأتك ولدا وتسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون ، لانه يولد من بطن أمه ممتلئا بالروح القدس ويرد بنى اسرائيل الى الههم ، ويتقدم بروح ايليا (الياس) وقوته .. »

وقد ذكرت قصة زكريا فى سورة آل عمران من القرآن الكريم : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين . قال رب انى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ، قال كذلك الله يفعل مايشاء . قال رب اجعل لى

آية قال آيتك الا تكلم الناس ثلاثة ايام الا رمزا ، واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار.

وذكرت فى سورة مريم : «ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، اذ نادى ربه نداء خفيا ، قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم اكن بدعائك رب شقيا ، وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا . قال رب انى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ، فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشيا ، يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة ، وكان تقيا ، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا »

وقد نشأ الطفل منذورا للبتولة وذلك معنى وصفه فى القرآن الكريم بالحصور ، وكان عليما بالكتب الدينية ، يسمعها من أبويه ويتلوها فى خلواته ، وكان كثير العزلة شديدا على نفسه فى تهجده ونسكه ، فلما ظهر بالدعوة رآه الناس فى ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد ، يصوم اكثر الايام ويقتات من الجراد والعسل البرى ويهيب بالناس فى صوت قوى صارم : توبوا واستعدوا . قد وضعت الفأس فى رأس الشجرة وكل شجرة لاتأتى بثمر جيد تقطع وتلقى فى النار : صوت صارخ فى البرية كما قال الانبياء الاقدمون

ولم يكن يتقى حرجا فى كلامه عن ذى خطيئة او دنس ، فراح

ينحى بهذا الصوت القوى الصراح على الملك هيرود لانه تزوج من هيرودية اخته وزوجها لايزال بقيد الحياة ، فلما اعتقله الملك وجيء به الى حضرته لم يسكت ولم يكف عن التنديد به وباخته وامره بتطليقها فرارا من غضب الله .

وفى سهرة من سهرات اللهو التى تعود هيرود ان يحييها فى قصره ، رقصت بنت اخته (سلامة) بين يديه فاستخفه الطرب ووعد ان يعطيها سؤلها كائنا ماكان ، فلم تسأله شيئا غير رأس يوحنا فى طبق ، واصرت على طلبها فاعطاها ماسالت وهو كاره ، ونجا بفعلته لان يوحنا كان شديد اللسان على الكهان والفقهاء ، فتقبلوا تلك الجريمة بغير تشهير أو اعتراض

وقد تنكر الكهان والفقهاء للرسول الثائر قبل ان يتنكر لهم ، كما يفعل الدينيون « المحترفون » عادة بالوعاظ الذين لاينتسبون اليهم ولا يعيشون فى زمرتهم ، فكان يوحنا يصيح بهم « يا أولاد الافاعى .. لايهجسن باخلادكم انكم تنتسبون الى ابراهيم ... انى اقول لكم ان الله قادر ان يخرج من هذه الحجارة ابناء لابراهيم »

وكانت هذه اول صيحة من ذلك الرسول الثائر سمع فيها الناس ان الخلاص نعمة يسبغها الله على من يشاء ولا يخص بها ابناء سلالة دون سائر السلالات البشرية وكانت علامته على قبول المسيحيين لدعوته ان يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول فى زمرة التائبين وطلاب الخلاص ، ولو لم يكن لهم نسب فى آل يعقوب وابراهيم

هذه الدعوة الصارمة لم تلبث ان اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور ، ولكنها لم تذهب سدى بين الدهماء التى لاتضلها أهواء السيادة ، وبقى اسم يوحنا مقدسا محبوبا يخاف الادعياء ان

يجترئوا عليه ، فلما أراد الكتبة والناموسيون ان يحرجوا السيد المسيح بالاسئلة والمعميات ردعليهم حرجهم وقال لهم :اجيبونى (اولا) هل كانت رسالة يوحنامن السماء أم من الناس ؟ فلم يستطيعوا جوابا لانهم اذا اعترفوا برسالته اتهموا انفسهم واذا انكروها غضب الشعب عليهم فصمتوا مفحمين

وليس أدل على مكانة يوحنا من ثناء يوسفوس المؤرخ الكبير عليه ،وهو شديد الحذر من اغضاب ذوى الرأى والسلطان ، فقد قال عنه : « انه كان انسانا صالحا أوصى اليهود أن يبر بعضهم ببعض وان يتقوا الله » . وهذه شهادة من المؤرخ يرددبها شهادة قومه ، وهى شهادة للرسول وشهادة على انفسهم ، وقد باءت دعوة الرسول الصارم باحدى التجربتين اللتين مرت بهما دعوة الخلاص فى عصره ، فخرج الرسول الصارم من الدنيا وهو يعلم أن دعوة الخلاص ضائعة اذا انحصرت فى قبيل واحد ، وان الخلاص مرهون بمن يطلبه ويخشى من فواته ، ولو لم يكن من ذلك القبيل

***

والسيد المسيح طبيعة اخرى غير طبيعة يحيى بن زكريا ،فلم يكن متأبدا ولا نافرا من الناس. بل كان يمشى مع الصالحين والخاطئين . وكان يشهد الولائم والاعراس ، ولم يكن يكره التحية الكريمة التى تصدر من القلب ولو كانت فيها نفقة وكلفة ، ووبخ تلاميذه مرة لانهم تقشفوا وتزمتوا فاستكثروا ان تريق احدى النساء على رأسه قارورة طيب تشترى بالدنانير ، وقالوا : لماذا هذا السرف ؟ لقد كان احرى بهذا الطيب ان يباع ويعطى ثمنه للفقراء ، فقال لهم عليه السلام « مابالكم تزعجون المرأة ؟ انها احسنت بى عملا . وان الفقراء معكم اليوم وغدا ، ولست معكم فى كل حين »

هذه السماحة قد اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور كما اصطدمت بهما تلك الصرامة. وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال: « ان يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به مس شيطان، ثم جاء ابن الانسان يأكل ويشرب فقالوا انه انسان اكول شريب محب للعشارين والخطاة »

رسالة قد استوفت تجربتها بل تجربتيها ، وخـــرجت من التجربتين معا انسانية عالمية تنادى من يستمع اليها ، وتعرض عمن اعرض عن دعـــوتها بل دعوتيها : دعوة الغيرة الصارمة الابية ، ودعوة الغيرة السمحـــة الرضية ، ولو قدر لها ان تعيش فى قبيل واحد لاستمع لها ذلك القبيل فانعزلت معه ، فلم يسمع بها العالمون

الشريعة

كل مراجعة تاريخية لذلك العصر تنتهى من جانب البحث السياسى او جانب البحث الاقتصادى او جانب البحث الاجتماعى ، أو الدينى، أو الثقافى الى نتيجة واحدة : وهى ان ضحايا البذخ والرياء قد بلغوا فيه من كثرة العدد وسوء الاثر حدا يفوق احتمال عصر واحد ،فلا يطيق ان ينتقل بها الى العصر الذى بعده دون ان يطرأ عليه طارىء ، ولن يكون ذلك الطارىء غير طارىء انقلاب شامل

بلغ فيه ضحايا البذخ والرياء غاية ما يبلغونه فى عصر واحد ، وقد يقال انهم ضحايا الرياء بالوانه الاجتماعية والنفسية ، فما كان البذخ الا ضربا من الرياء الاجتماعى ، لانه معلق فى جميع احواله بفخفخة الظهور ، وسيان ولع النفوس بفخفخة الظهور الاجوف ووعها بالرياء

وفى عصر كذلك العصر تلزم الرسالة

لكنها رسالة لا تلزم لتاتى العالم بمزيد من الشريعة ، ولا بمزيد من تطبيق الشريعة . فقد تكون المصيبة كلها فى تطبيق الشريعة اذا جرى على سنة الرياء ، وغلب فيه النفاق على الصدق والانصاف

انما تلزم الرسالة فى امثال ذلك العصر لتعطى العالم ما يحتاج اليه ، وتنقذ ضحاياه

والآداب الانسانية هى الحاجة العظمى حين ينخر السوس باطن العرف والشريعة ،وضحايا الرياء هم أول من يتلقف تلك الآداب الانسانية ويشعر بتلك الحاجة العظمى

انها رسالة قلب كبير يشعر فيجذب اليه كل شعور ، ولا سيما شعور الضحايا والمظلومين

ويوشك مع الظلم ان يكون كل متهم مظلوما ، لان الجريمة كلها فى جانب الحاكم لا فى جانب المحكوم عليه

وحيث يكون الظلم هو الآفة فالمتهمون هم اولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ

وقد كان المتهمون هم اولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ فى احضان الدعوة الجديدة :احضان الرسول المبشر بالخلاص والنجاة

طوبى للحزانى • طوبى للمساكين • طوبى للجياع والظماء • طوبى للمطرودين فى سبيل البر ، طوبى للودعاء والرحماء : « تعالوا الى ياجميع المتعبين والمثقلين ••• احملوا نيرى عليكم وتعلموا منى ... فتجدوا راحة لنفوسكم •لان نيرى هين وحملى خفيف »

أما الويل فهو ويل الشباعى الذين لايعلمون انهم جائعون ، والاغنياء الذين لايعلمون انهم معوزون ، والمتجبرين الذين لايعلمون انهم مساكين،والمتكبرين الذين لايعلمون انهم منكسرون

***

واستجاب ضحايا الرياء صيحة الرسول الكريم على قدر شوقهم الى العزاء، وعلى قدر مايحملونه من اوقار الشريعة العمياء ، والتقوى المزيفة ، وربما كان الاصح ان الرسول الكريم بذل عطفه لضحايا الرياء على قدر حاجتهم اليه وشعورهم براحته ورحمته ، وعلم ان الشكران على قدر الغفران ،وان الامل فى التوبة على قدر الكرم فى المحبة : « مدينان على أحدهما خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون • ليس لهما مايوفيان ، فاجزلهما شكرا من سومح فى الدين الكبير »

وكانت ضحية الضحايا فى ذلك العصر المرأة ، لأنها لم تزل ضحية الضحايا فى كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب ويطغى عليه الحرمان من جانب ، ويعم الرياء فى كلا الجانبين ، ولم تزل فى كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على الوانها : فتنة الغواية

وفتنة الفاقة وفتنة الاسرة المنحلة وفتنة الحيرة التى تعصف بالثقة ... والطمأنينة الزم ما يلزم المراة فى كل زمان

ونظرت تلك الفريسة التى لاحقتها اللعنة احقابا بعد احقاب، واطبقت عليها الفتنة فى ذلك العصر خاصة اكاما فوق اكام ـ فاذا حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ويشيع الامل فى رحمة الله بين جوانحها ، فعلمها درس من دروس الحب القدسى، مالم تتعلمه من دروس العقاب فى شريعة المنافقين وموازين المقسطين ، وبرزت على صفحة الزمن فى ساعة من ساعات ذلك العصر المريج صورة مشرقة زالت شرائع الهيكل ، وزالت شرائع رومة ، وهى باقية عالية : صورة الغفران ماثلة فى شخص الرسول الكريم ، وصورة التوبة ماثلة فى شخص فتاة منبوذة جاثية عند قدميه ، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر راسها

والتفت السيد الى تلميذه والى المتعجبين من حوله ، يتساءلون : كيف يزعم انه نبى ويجهل انها امراة خاطئة ،فقال: «انظر الى هذه المراة ! انى دخلت بيتك فلم يكن لقدمى فيه مسحة من ماء ، ولكنها غسلتهما بالدموع ومسحتهما بشعر راسها ، ولم تمنحنى قبلة وهى منذ دخلت لاتكف عن تقبيل رجلى ، ولم تدهن راسى بزيت ، وهى قد دهنت رجلى بالطيب ... ومن أحب كثيرا غفر له الكثير من خطاياه .. »

توبة صادقة ورحمة مستجيبة لا غرو تضيع على الشريعة الكاذبة فرائسها ، وتخشى التقوى الزائفة على فخرها وكبريائها ، وويل لمن يفتح بابا للتوبة والرحمة ولا يبالى الابواب التى فتحت للنقمة والعقاب

***

منذ الخطوة الاولى التى خطاها السيد المسيح فى التبشير

برسالته أخذ على نفسه ان يعتزل السلطة ، ويتنحى لهـــا عن ميدانها ، فلا يتصدى لها بابطال او بانقاذ : لايبدلها ولا يدعى لنفسه ولايتها ، وحق لكل معلم قادر ان يسلك تلك الخطة فى زمنه ، فانه ـ كما تقدم ـ قد نشأ فى دنيا تشكو الكظة من الشرائع والاوامر والنواهى والحـــكام والمتحكمين : ما فاض من رومة الشرائع تملأه مراسم الهيـــكل وشعائره ومحللاته ومحرماته ، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وابنـــائه واذنابه وتابعيه ، ولا حاجة الى مزيد من الاحكام مع فساد الحكام ، فاذا وجب اصلاح بعضها فالخير من اصلاحه لايساوى جهد الحـرب التى تشنها طائفة ضعيفة عـــلى دولة الرومان ، وعلى دولة الهيكل وعلى الدويلة الادومية اليهـودية التى تشايع الدولتين وتعمـــل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين ، ومن المحقق ان الشر الذى ينجم من ذلك الجهد اخطر وافدح من الخير الذى يتأتى من ورائه ، ان تأتى ، وقد يدرك باصلاح الضمائر وتهذيب الآداب الانسانية وتعليم الآحاد امثلة من الاخلاق تهدى اصحابها حيث تضلهم الشرائع والقوانين

الا انه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميـــدانها فلم تترك له ميدانه ، وسرعان ما اقبلت عليه الجموع حتى احست السلطة ـ سلطة الدين قبل كل شىء ـ بالخطر المقبل من ذلك الداعية المحبوب ، وكل داعية محبـوب خطر على سلطة التقاليد والجمود

جاءوه فى ميدانه بعد ان ترك لهم ميدانهم ، ووقع الاشتبـاك الذى لابد منه بين سلطة شعارها المبالغة فى الاتهام والبحث عـن المخالفات والعقوبات ، وبين دعوة شعارها تيسير التوبة للخاطئين وتمهيد سبل الرجاء فى الغفران

كان التبشير بالغفران والتوبة اكبر ذنوب الداعى الجديد ، لان

الخطايا والعقوبات بضـــاعة السلطان القائم ، وهي على كونها مصلحة مربحة ، باب للفخـــر والكبرياء

فجاءوا يسوقونه الى حيث ابى ان يساق ، وكان همهم الاكبر ان يثبتوا عليه انه يبطل شريعـــة أو يتصدى لتنفيذ ذريعة ، فاعنتوا عقولهم فى البحث عن المشكلات والالغاز التى يفتى فيهـــا بما يخـــالف الشريعة الدينية اوالقوانين السياسية ، او يفتى فيها بما يخالف آداب الرحمة ووصايا السماحة والصلاح

برز له مرة واحد من جموع السامعين فقال له : ايها المعلم ! مر اخى يقاسمنى الميراث ... وظن انه يتولى هنا سلطـــة التقسيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه ، فما زاد على أن قال : ايها الانسان ، من اقامنى عليكما قاضيا أو حسيبا ؟

وتعمدوا وهو فى الهيكل ان يضطروه الى موقف الحكم اوانكار الشريعة ، فاقتحم عليه الكتبـــة والفريسيون درسه ومعهم امراة يدفعونها الى وسط الحلقـــة ، وراحوا يتصايحون : ايها المعلم . هذه امراة اخذت وهى تزنى ، وقد اوصانا موسى ان نرجم الزانية ، فماذا تقول انت ؟

ماذا يقول هو ؟ ما بالهم يسالونه ويســـتأذنونه وهـــو لا يملك ان يمنعهم لو ذهبوا بها الى قضاتها ؟ .. ان الشرك مكشوف على وجه الارض . وليس منه مخرج فيما حسبـــوا وخمنوا ... ان قال ارجوها فذلك حق الولاية يدعيه ، وان قال اطلقوها فتلك شريعـــة موسى ينكرها فى قلب الهيكل . فكيف الخلاص من جانبى الشرك ، ولو انه مكشوف معروف

سبق الى ظنهم كل خاطر الا انه ينتهى من القضية الى حـــل لا يدعى به السلطة ولا ينكـــرها ، ولا ينساق فيه الى مجاملة الرياء بالدين والكبرياء بالتقوى ، ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج

من المأزق الذى دفعوه اليه ،وهو يستمع اليهم ويخط بأصبعه على الارض حتى فرغوا من جلبتهم وسؤالهم ، فوقف قائما وردعليهم رياءهم فى وجوههم وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه، وهو يقول لهم : « من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر »

لاينقض شريعة موسى ولايدعى تنفيذها ولا يجامل رياءهم بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان !

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها امامه ، فسألها سؤال العارف : أين المشتكون منك . أما دانك أحد ؟ ... فقالت : لا أحد أيها السيد . فارسلها وهو يقول : ولا أنا أدينك . فاذهبى ولا تخطئى

نعم . لا يدينها ولا يحسب عليه انه لا يدينها فى تلك القضية ولو كان هو قاضيها ، لان القاضى لايدين بغير شكوى، وبغير شهود وبغير بينة !

وتناول مسألة الزواج والطلاق وقد بلغ من سهولتهما فى ذلك العصر أن تتصدع الاسرة وأن تصبح الزوجة أضيع من الخليلة فى عرف قومها ، فقال أن الزوج والزوجة جسد واحد لايفصلهما الانسان وقد جمعهما الله « ومن طلق امرأته الا لعلة الزنا دفعها الى الزنا ، ومن تزوج مطلقة فانه زان »

ولم تحدث مناوشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفيقهين من متخذى العلم صناعة وأحبولة الا ارتدوا منها مفحمين ، وخرج منها مجيبا أحسن جواب بل أكرم جواب .

فلم يصعب عليه أن يحطم « الشرك السياسى » الذى نصبوه له ليسمعوا منه اشارة باعطاء الجزية أو بعصيان الدولة ، وأراهم أنهم يتعاملون بنقود قيصر ويكنزون منها الثروة والمال ، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟

ولم يصعب عليه أن يسكت الصدوقيين والفريسيين معا

والأولون ينكرون البعث والآخرون يؤمنون به جسدياوروحيا على السواء . فلما قيل له أن شريعة موسى توصى الأخ أن يبنى بزوجة أخيه المتوفى حفظا للأسرة ، وسألوه : لمن تؤول فى يوم القيامة زوجة تعاقبها سبعة اخوة؟ خيل اليهم أنه لن يستطيع أن يجيب على هذا السؤال جوابا يرضى الصدوقيين أو يرضى الفريسيين ، فكان جوابه مفحما لهؤلاء وهؤلاء ، لان الاحياء فى العالم الآخر لا يتزاوجون زواج هذا العالم ، ولا يتناسلون !

والحق أن الاناجيل لا تروى لنا من هذه المساجلات الا ما نشهد أمثاله اليوم فى كل درس من الدروس العامة يتصدى فيه المتعالمون المتفيهقون لتعجيز المعلمين والوعاظ ، وان اختلفت المقاصد من أسئلة السائلين فى كل حلقة على حسب الموضع والموضوع

والحق أن قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والاجوبة المسكتة لهى دليل آخر الى جانب ادلة كثيرة على « الشخصية » التاريخية ، والدعوة المتناسقة ، لانها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين ، بل هم يروونها ولا يفطنون الى أهم البواعث عليها فى سياسة الرسالة المسيحية ، فان هذه الرسالة قائمة على اجتناب التشريع واجتناب التعرض له بالابطال أو الابدال ، ووجهتها على الدوام أنها لا تدعى سلطة من سلطات الدنيا والدين ، وأن مملكة المسيح من غير هذا العالم وليست من ممالك الدول والحكومات .. كذلك قال لكهان الهيكل وكذلك قال لبيلاطس حاكم الرومان ، وعلى ذلك جرى اسلوبه فى كل أمر وفى كل موعظة . فهو اسلوب الآداب والمثل العليا وليس بأسلوب النصوص والقوانين ، وكلامه عن زنى المطلق وعن زنى العين التى تقلع اذا نظرت نظرة اشتهاء ، وعن خطيئة اليد التى تقطع اذا وقعت فى العثرات ، لا يحمله أحد على محمل التشريع وليس

فى مسلك المسيح كله فى رسالته ما يجريه مجرى الالزام ، ومع هذا غلب على الرواة من يحسبه تشريعا مقصودا بحروفه ، وقل من الرواة من فرق فى فهمه بين أسلوب الشريعة المقصودة بحرفها وأسلوب الآداب الانسانية التى ترتفع الى الاكمل فالاكمل وتنفذ الى المعانى من وراء الالفاظ ، ويرجع الامر فيها الى ضمير يحاسب صاحبه ولا يرجع الى قاض يسمل عينا او يدخل فى الصدور ليتتبع فيها بواعث الاشتهاء ، ولو خلصت هذه المعانى الى سامعيها جميعا كما عناها السيد المسيح لما ثبتت له كما ثبتت من اختلاف الفهم والتأويل .

شريعة الحبّ

الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر ـ فالجمود يقف بصاحبه عند الكلمات والنصوص ، يخيل اليه انها مقصودة لذاتها فتصبح شغلا شاغلا له يمعن فى تأويلها وتوجيهها واستخراج العقد والالغاز منها ، وينتهى الامر به الى اعتبارها مسألة براعة وفطنة واعتبار الاحكام والعقوبات فرصة للشارع لا يجوز أن تفلت من بين يديه ، والا كان ذلك مطعنا فى براعته وفطنته وهزيمة له امام غرمائه المقصودين بتلك الاحكام والعقوبات

ومن الجامدين من يفخر بعلمه بالنصوص والشرائع ، ويقيس علمه بمبلغ قدرته على خلق العقد والعقبات من خلال حروفها وسطورها أو من المقابلة بين سوابقها ولواحقها وبين مواضع الموافقة والمناقضة منها ، ويحدث هذا لكل « شريعة » صارت الى أيدى الجامدين والحرفيين ، فقد أدركنا فى مصر أناسا من كتاب الدواوين يفخرون بقدرتهم على توقيف العمل بين المراجعات والردود ، اعتمادا على هذا النص او تلك الحاشية ، وافتتانا منهم فى عصر العبارات ونبش الدفائن واقامة الدليل من ثم على سعة العلم والغلبة فى ميدان الحوار ومجال اللف والدوران

ولا حساب للنفس البشرية بطبيعة الحال عند هؤلاء الجامدين الحرفيين ، فانما الحساب كله للنص المكتوب من جهه ولدعوى العلم والتخريج من جهة أخرى ، وانما النفس البشرية هى الفريسة التى يتكفل العقاب باقتناصها ويتكفل العلم باغلاق منافذ النجاة فى وجهها ، ويقدح فى غرور العالم المحيط بأسرار الشريعة وخفاياها ان تتمكن النفس المسكينة من الهرب وأن يرجع العقاب بغير فريسة ... وتلك خيبة للشرائع والقوانين ، خيبة لها أن تفتح مذابحها ثم تتيح للضحايا والقرابين أن تفلت منها!

فالشارع الماهر فى عرف الجمود هو أقدر الشـــارعين على مد الحبائل واقتناص الضحايا

والفخر كل الفخر لحدام الشريعة أن يوفروا لها الصيد ويحكموا من حوله الشبكة

وقد تنتفخ الاوداج بهذا الفخر علانية ، ويصـبح أحق الناس بالمفخرة أقدرهم على ادانة الآخرين

ويتمادى الامر حتى تصبح الاستقامة براعة فى اللعب بالالفاظ وتعجيزا للجهلاء بالحيل والفتاوى ، وحتى يزول الجوهر فى سبيل العرض ، ويزول اللبـــاب فى سبيل القشور ، وتزول الاستقامة وطهـــارة الضمير فى سبيل الكلمات والنصـوص ، وتزول الحقـــائق فى سبيـــل الظواهر والاشكال

واذا صار أمر الفضـــائل الى الظواهر والاشكال تساوى فيها الصدق والرياء ، فان غاية الصدق والرياء معا شكل ظاهر باطنـه خواء ، فلا فرق بين المرائى وبين الصادق فى فضيلته ، ما دامت الفضيلة جمودا لا حس فيه ولا حيـاة ولا اعتبـــار فيه للنفس البشرية وراء النصوص والاحكام ووراء الاوامر والنواهى ، ووراء العقاب والاحتيال

ان الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر

وعالم الظواهر غير عالم الضمير

وهذان هما العالمان اللذان تقابلا وجها لوجه عند قيام الدعوة المسيحية :

عالم كله قيود واشكال

وعالم طلق من القيود والاشكال ، فى ساحة الضمير

روى انجيل متى فى الاصحاح الخامس أن السيد المسيح قال:

« لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الانبياء . ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل »

وروت الاناجيل أنه عمل فى يوم السبت وسخر من المحرمات التى لا تدنس الانسان ، وخاطب الناس بغير خطاب الناموس

فهل نقض المسيح من تقدموه او اتبعهم فى كل ما ابرموه ؟

ان شئت فقل انه نقض كل شىء

وان شئت فقل انه لم ينقض منه مثقال ذرة

لانه نقض شريعة الاشكال والظواهر وجاء بشريعة الحب ، أو شريعة الضمير

وشريعة الحب لا تبقى حرفا من شريعة الاشكال والظواهر ، ولكنها لا تنقض حرفا واحدا من شريعة الناموس بل تزيد عليه

وينبغى هنا ان نصحح معنى الناموس فى الاذهان ، فان معناه هو « القوام » الذى يقوم به كل شىء ، وناموس العقيدة هو الاصول الابدية التى يقوم بها ضمير الانسان ما دام للضمير وجود ، فلن يزال قائما — كما قال السيد المسيح — ما قامت الارض والسماوات

ولقد كمل المسيح شريعة الناموس حقا لانه جاء بشريعة الحب ، وهى زيادة عليه

ان الناموس عهد على الانسان بقضاء الواجب . اما الحب فيزيد على الواجب ، ولا ينتظر الامر ولا ينتظر الجزاء

الحب لا يحاسب بالحروف والشروط ، والحب لا يعامل الناس بالصكوك والشهود ، ولكنه يفعل ما يطلب منه ويزيد عليه ، وهو مستريح الى العطاء غير متطلع الى الجزاء

بهذه الشريعة — شريعة الحب — ، نقض المسيح كل حرف فى شريعة الاشكال والظواهر

وبهذه الشريعة — شريعة الحب — رفع للناموس صرحا يطاول السماء ، وثبت له اساسا يستقر فى الاعماق

وبهذه الشريعة - شريعة الحب - قضى على شريعة الكبرياء والرياء ، وعلم الناس ان الوصايا الالهية لم تجعل للزهو والدعوى والتيه بالنفس ووصم الآخرين بالتهم والذنوب ، ولكنها جعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك ، وللعطف على الناس بالرحمة والمعذرة ، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب

وفى اعتقادنا ان « شخصية » السيد المسيح لم تثبت وجودها التاريخى وجلالها الادبى بحقيقة من حقائق الواقع كما اثبتتها بوصايا هذه الشريعة : شريعة الحب والضمير

فكل كلمة قيلت فى هذه الوصايا فهى الكلمة التى ينبغى ان تقال ، وكل مناسبة رويت فهى المناسبة التى تقع فى الخاطر ولا تصل اليها شبهة الاختلاق

يلزم فى شريعة الكبرياء والرياء من يتخذ الدين سبيلا الى التعالى على الآخرين ، ويلزم فى شريعة الحب من يقول لذلك المتعالى على غيره المتفانى بنفسه : « لماذا تنظر الى القذى فى عين اخيك ولا تنظر الى الخشبة فى عينك ؟! »

يلزم فى شريعة الفرح بالعقاب والسعى وراء العورات من يسوق المرأة الخاطئة فى المواكب ويخف الى مواقف الرجم كأنما يحف الى محافل الاعراس ، ويلزم فى شريعة الحب من يبهت ذلك الجمع المنافق ويكشف له رياءه ويرده الى الحياء ، وقد ارتد الى الحياء حين استمع السيد يناديه : « من لم يخطىء منكم فليرمها بحجر ... ! »

ويلزم فى شريعة الرياء والكبرياء ان يفخر المصلى بصلاته وان يعلن الصائم عن صيامه ويتخذه زيا ينم عليه بعبوسه وضجره ، ويلزم فى شريعة الحب من ينهى الناس عن صلاة الرياء وصيام الرياء لانهم يحبون ان يصلوا قائمين

فى المجامع وفى زوايا الشوارع.. ومتى صمتم انتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين ، فانهم يغيرون وجوههم ليظهروا للناس صيامهم فقد استوفوا اجرهم فلا جرلهم ، واما انتم فمتى صمتم فادهنوا رؤوسكم واغسلوا وجوهكم ، لا يظهر صيامكم للناس بل لابيكم المطلع فى الصدور »

يلزم فى شريعة الرياء والكبرياء ان يفخر المعطى بالعطاء وان يستطيل به على الفقراء ، وان يصوت قدامه بالابواق ويعلن صدقته فى الطرقات والاسواق ، ويلزم فى شريعة الحب ان تستتر اعمال المحسنين فلا تعلم الشمال ما تفعل اليمين

فى شريعة الكبرياء يتقى المتكبر تقواه ليتكبر بها على المذنبين ويلوم المرشد المصلح لانه يجلس مع العشارين والخطاة وفى شريعة الحب والضمير يقال للمترفعين بتقواهم ما ينبغى ان يقال لهم : انما يحتاج المرضى الى الطبيب وانما يكون الحب على قدر الغفران

وقد بلغت فتنة « الظواهر والاشكال » غايتها وطغت من الهيكل الى البيت ، ومن المكتب الى السوق ، ومن المنبر الى المائدة . حتى لقمة الطعام اصبحت لا تحل او تحرم الا بمقدار ما يتلى عليها من الاوراد والعزائم ، وما تحاط به من الشعائر والمراسم ، وما يرسمه الكهان من احكام الذبائح والولائم ، فبحق يصطدم هنا عالم الظواهر وعالم الضمير ، وبحق يقال للمتطهرين بغسل الايدى والتلاوة على لقم الطعام وصحاف المائدة : « ان ما يدخل الفم لا يدنس الضمير ، وان الدنس انما يخرج من القلب الذى فيه الشر والزور والفسوق والكفران »

***

ومجمل القول ان الخير كله كان فى حكم شريعة الظواهر والاشكال ،

شريعة الكبرياء والرياء ، مسألة «امتياز رسمى» يحتكره اصحابه بفضل السلالة والعنصر ويرجع الامر فيه الى الموروثات والمأثورات

فالفضل بين الامم « امتياز رسمى » محتكر لاسرائيل لانهم ابناء ابراهيم ، والفضل بين الاسرائيليين « امتياز رسمى » محتكر لابناء هرون وابناء لاوى اصحاب الكهانة بحق النسب والميراث ، والفضل فى الدين والعلم حرفة يحتكرها الكتبة والناموسيون أو فقهاء ذلك الزمان ، بل كادت محبة الله لشعبه المختار ان تكون «وثيقة فى صك مرسوم » تضمن الايثار لذلك الشعب وان هبطت به اعماله دون سائر الشعوب ... « فلا لانكم اكثر الشعوب لازمكم الرب واختاركم فانكم اقل من سائر الشعوب ، بل هى محبته وحفظه القسم الذى عاهد عليه آباءكم »

فلما قامت الدعوة المسيحية بشريعة الحب والضمير كانت كلمتها هى الكلمة التى تقال فى كل ما ادعوه ، وما استأثروا به واحتكروه

ليس الخير حكرا للنسب والسلالة «بل الذى يعمل بمشيئة الله هو اخى واختى وامى » .. « ان كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحاق ويعقوب على ارائك الملكوت ، واما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة بالعراء »

وانما الرحمة عمل، لا نسبة ولاحرفة.. وضرب لهم مثلا: انسانا « خرج عليه اللصوص فى الطريق فسلبوه وضربوه وتركوه بين الحياة والموت ، وعبر به كاهن فاهمله ومضى فى طريقه ، وجاء لاوى فمضى ولم يلتفت اليه ...ولكن سامريا رآه فاشفق عليه وضمد جراحه واركبه على دابته واتى به الى فندق واولاه عنايته ثم اخرج لصاحب الفندق عند سفره دينارين لينفقهما عليه

ويعنى به ومهما يتفق عليه فهوموفيه عند مرجعه » ... قال السيد المسيح لتلاميذه وقدضرب لهم هذا المثل : « اى هؤلاء الثلاثة اقرب الى ذلك الصريع الجريح ؟ » والجواب الذى لا خلاف عليه بداهة ان السامرى المنبوذ اقرب اليه من ابناء هرون ومن اللاويين المصطفين !

وراح يجبه فطاحل العلماء التياهين بما علموه وحفظوه وتفننوا فيه من الغاز الفقه واحاجى الشريعة ، فقال لهم «ان الدين بما تعمل لا بما تعلم »... وحذر اتباعه ومريديه ان يقتدوا بهم فى عملهم وان يدعوا مثل دعواهم : « لانهم يحزمون الاوقار ويسومون الناس ان يحملوها على عواتقهم ولا يمدون اليها اصبعا يزحزحونها ، وانما يعملون عملهم كله لينظر الناس اليهم ؟ يعرضون عصائبهم ويطيلون اهداب ثيابهم ، ويستأثرون بالمتكأ الاول فى الولائم والمجالس الاولى فى المجامع ، ويبتغون التحيات فى الاسواق وان يقال لهم : سيدى سيدى حيث يذهبون ... »

ثم يهتف باولئك المنافقين التياهين : « ايها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل ... انكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة وهما فى الباطن مترعان بالرجس والدعارة ..... ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراءون - انكم كالقبور المبيضة ، خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة »

ولما تعالوا عليه بالاسئلة عن اسرار الكتب والغاز الفرائض والوصايا ، وسالوه ايهما اعظم فى الناموس ؟ حسبوا انه سينقب بين السطور ويطيل البحث بين الاسرار والالغاز ، ولكنه ترك السطور والنصوص وجمع لهم الدين كله والكتب جميعا فى كلمات معدودات : « ان تحب ربك بجماع قلبك ومن كل نفسك وفكرك ، وان تحب قريبك كما تحب نفسك »

هذا كل ما يلزم العابد الصالح ان يحتقبه من القماطر والاوراق، ولا تكون العقبى انه يهدر الفرائض والاحكام وانه يستبيح ما لا يباح، بل لعله يتشدد حيث يترخص النصوصيون والحرفيون ، كما يتشدد الانسان حين يحاسب ضميره ويصنع فى سبيل الحب ما لا يصنعه فى سبيل الواجب ،وكل ما هنالك ان تصبح الفضيلة وحى نفس وحساب ضمير ، ولايصبح قصاراها وحى القانون وحساب الصكوك والشروط ،واساليب الروغان من بين السطور والحروف

لا جرم كانت شريعة الحب والضمير اشد واحرج من شريعة الظواهر والاشكال ، لان الضمير موكل بالنيات والخواطر قبل الافعال والوقائع ، ولانه يحاسب صاحبه على همساته ووساوسه ولا يتركه حتى يعمل ما يضر او يسوء

« قيل للقدماء لا تقتل ومن يقتل وجب عليه العقاب . اما نا فاقول لكم ان من يغضب على اخيه باطلا يأثم ويجزى ... فان قدمت قربانك وذكرت حقا لاخيك عليك ، فدع قربانك امام المذبح واذهب قبل فصالح اخاك.

« وقيل للقدماء لا تزن . اما انا فاقول لكم ان من ينظر الى امراة فيشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ، فان كانت عينك اليمنى تلقى بك فى العثرات فاقلعها واقها عنك فخير لك ان يهلك عضو لك من ان تهلك كلك ...

« وقيل للقدماء لا تحنث .. واما انا فاقول لكم لا تحلفوا... وليكن كلامكم كله نعم نعم. لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشيطان ...

« وسمعتم انه قيل عين بعين وسن بسن . واما انا فاقول لكم لا تقابلوا الشر بالشر ، ومن لطمك على خدك الايمن فحول له الايسر

.. ومن سخرك ميلا واحـــدا فاذهب معه ميلين ...

« وسمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عـــدوك . واما انا فاقول لكم احبوا اعداءكم ،باركوا لاعنيكم .احسنوا الى مبغضيكم . وادعوا لمن يسيء اليكم ويطردكم، لكى تكونوا ابناء ابيكم الذى فى السماوات ، فانه يطلع شمسـه على الاشرار والصالحين ويرسل غيثه للابرار والظالمين . واي اجر لكم ان احببتكم من يحبونكم . اليس العشـارون يفعلون ذلك ؟واي فضل تصنعون ان خصصتم اخوتكم بالسلام؟اليس العشارون يفعلون ذلك ! فتعلقوا انتم بالكمال، فان الله كامل .. يحب الكمال.. »

هـذه شريعة تهدم كل عرف قائم وتعصف بكل شكل ظاهر ، ولكنها لا تهدم الناموس ولا تعصف بركن من اركـانه ، وقـد تزيد فرائضه ولا تنقص حرفا منهـا حين تنقلها من الاوراق ومناظر العيان الى الضمائر والقلوب ،لان الانسان يحاسب نفسه اذا احب حسابا لا تدركه الشرائع ولا يطلع عليه القضاء

وقد كان المصطدم بين الشريعتين حيث يتوقع وكما يتوقع ، وكان السجال بينهما هو السجال الذى تمليه شريعة الحب والضـمير وشريعة الظواهر والاشكال ، ولم تسقط من ذلك السجال كلمـة كانت منظـورة من دعاة الرياء والكبرياء ، ولم يكن الجواب على كلمة منه عرضا غير مقصود فى وجهته او جزافا يقوله كل قائل ويأتى لغير مناسبة ، ومن ثم نقول ان الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهان اصدق من هذا البرهان ، وان المصطدم بين الشريعتين لا يختلقه المختلق ان شـاء ، لانه من وراء طاقة المختلق ان يخلق طبيعة الشريعتين شريعة الحب والضمير وشريعـة الرياء والكبرياء ، ويدفع بهما حيث تندفعان ويملى عليهما ما تسألان عنه وما تجيبان .

تلك معالم واضحة ومقاصد بينة معروفة المنحى ، فاذا وقع اللبس مرة فليس أيسر من الحسم فى مواضع اللبس على ذوى النية الحسنة ، فكل ماوافق شريعة الحب والضمير وخالف شريعة الظواهر والاشكال فهو هنا ، وكل ما مشى فى سبيل الظواهر والاشكال واعرض عن سبيل الحب والضمير فهو هناك، ولن يطول اللبس فى معنى من معانى السيد المسيح الا على عباد الالفاظ والنصوص ، وليس من الانصاف ولا من حسن الفهم ان تحكم الالفاظ والنصوص فى الدعوة التى تزدريها وترجع بكل شىء الى مقاصد الحب والضمير. ذلك كما قال السيد المسيح هو وضع الخمر الجديدة فى الزق القديم او وضع الرقعة القشيبة على الثوب الرديم .

آداب حیاة

كان « اوريجين » فيلسوفا ملحوظ المكانة فى تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية . ويرى الكثيرون انه اكبر المفكرين الدينيين الذين نبغوا بين القرن الثانى والقرن الثالث للميلاد ، ومن لم يره كذلك فلا خلاف عنده فى حسبانه بين ثلاثة او اربعة من كبار المفكرين فى عصره ، غير مستثنى منهم اساتذته الاولون

هذا الرجل قرأ فى شبابه قول السيد المسيح ان اناسا يخصيهم الله واناسا يخصيهم الناس واناسا يخصون انفسهم فى سبيل الله ، فحمله على معناه الحرفى وجب نفسه ليقدم بعد ذلك على تعليم النساء وهو آمن ، ولكنه ادرك خطاه بعد ذلك وعدل عن هذا الفهم الحرفى لاقوال السيد المسيح

الا ان ثبوت هذه الرواية فى سيرة رجل من اعلام زمانه يبطل العجب من روايات كثيرة بقيت بين اخبار الدعوة المسيحية فى عصرها الاول ، فقد كان الرجل يفقأ عينه اذا علم انها نظرت الى امراة نظرة اشتهاء ، وكان يمسخ جسده مسخا اذا راودته الشهوات ، حتى ليتساقط منه الدود وهو بقيد الحياة ، فاذا كان شاب فى ذكاء « اوريجين » وقوة فطنته يفهم العظات المسيحية على هذا الوجه ، فلا عجب ان يشيع هذا الفهم بين طائفة من البسطاء الذين لا يبلغون مبلغه فى الفطنة والدراية

لكن «اوريجين» نفسه قد عدل عن خطئه بعد زمن كما اسلفنا ، وسبقه وجاء بعده اناس من طبقته ايقنوا ان السيد المسيح قصد المعانى ولم يقصد الحروف حين اوصى بكف الاعضاء عن نزغات الجسد ، فلم يعن بفقء العين الا ما نعنيه بقطع اللسان حيث نريد به السكوت او الاسكات ، ولم يعن بقمع الجسد الا ما نعنيه بقمع الرياضة والتربية ، وكان كلمنت الاسكندرى يقول بحق أن السيد المسيح لا يعنى بنبذ المال ان نرفضه

بتاتا فى جميع الاحوال ، والا لم يكن الاحسان فضيلة من اكبر الفضائل فى الوصايا المسيحية ،وجاء القديس اوغسطين بعدذلك فنفى ان الدين يوجب الزهد على كل احد ، مع استحسانه الزهد لمن يقدر عليه

الا ان الخلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائما بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات فى اقوال حكماء المسيحية ، ولا يزال هذا الخلاف قائما الى عصرنا هذا فى الوصايا التى تدور على رفض الحياة خاصة ، وغير قليل من المتاولين ينحو منحى الدكتور «شويتزر» Schweitzer الذى يرى ان السيد المسيح قد اوصى الناس بتلك الوصايا لاعتقاده ان الساعة قريبة وان الدنيا التى يهجرونها مقضى عليها بالفناء فى مدى سنوات ، فكل ما اوصى به الناس فالمفهوم منه انهم على سفر وان الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذى يدخره المدخرون للدنيا الزائلة .

وفى اعتقادنا انه لا محل للخلاف على الوصايا التى وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجردين لنشر الدعوة ، فان كل دعوة فى عصر السيد المسيح اوفى عصرنا هذا ، وفى جهاد الدين او جهاد الدنيا ، تحتاج من الدعاة الى مثل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الاخرى ، ونظام فرق الفدائية فى الجيوش الحديثة معلوم لاخلاف عليه ، واول احكامه ان يفكر « الجندى المجاهد » فى الموت قبل تفكيره فى الحياة .

انما الخلاف على الوصايا حين تتجه الى غير التلاميذ والرسل : الى ابناء الدنيا الذين يعيشون فيها ويعملون لانفسهم ولمن يعولونهم من ابنائهم وذويهم ،فهل يطلب من هؤلاء جميعا ان ينقطعوا عن دنياهم ويرفضوا حياتهم ويتشبهوا بالطير والنبات فى اعتمادهم على الغذاء والكساء ؟

اقول حقا اننى افهم وصايا السيد المسيح جميعا ولا اجد فى فهمها صعوبة على الاطلاق اذا انكرنا الجمود على الحروف والنصوص كما كان ينكرها عليه السلام ، واذا علمنا انه عليه السلام قد قال كل شىء حين قال ولخص حكمته كلها فى هذا المقال : « ليس الانسان للسبت، وانما السبت للانسان » .

لقد كان هم السيد المسيح فى الاصلاح النفسى تغيير البواعث لا تغيير المقادير .

كان همه ان ينقل الآداب من محور الى محور ، ولا قيمة للمسافات ولا للابعاد اذا كان انتقال المحور هو المقصود .

كانت العروض هى المحور الذى تدور عليه حياة الامم والآحاد فى عصره ، فوجب ان يكون الجوهر الصميم هو محور الحياة .

كانت « الاشياء » مقدمة على النفس الانسانية ، فوجب ان تكون النفس الانسانية مقدمة على الاشياء .

وجب ان يكون ربح النفس الانسانية هو الغنيمة الكبرى ، لان من ربحها فلا جناح عليه ان يخسر العالم .

واذا كان «الحطام» هو محور الحياة فسيان الكثير والقليل : سيان من يطلب الدرهم الواحد ومن يطلب ملايين الدراهم ، فكلاهما مداره خطأ وسعيه عقيم

اذا كانت « الشهوة » هى محور الحياة فسيان من يشتهى بعينه ومن يقوم ويقعد ويسهر وينام فى طلب اللذة والغواية ، فكلاهما فارغ لهذا المحور الذى يدور عليه .

ولكننا ننقل المحور ، او ننقل القبلة كما اسلفنا فى فصل سابق ، فينتقل كل شىء ويتغير اللباب الاصيل من كل خلق .

اذا اصبح كسب النفس الانسانية ـ كسب المحور ـ هو

غاية الحياة فالذى يملك الملايين زاهد كالذى يملك العشرات أو الذى لا يملك شيئا من الاشياء .

اذا تغير المحور فمسافة الفرسخ والميل كمسافة الشبر والقيراط .

واذا بقى المحور فالبعيد كالقريب والقريب كالبعيد .

وتغيير المحور هو الذى عناه السيد المسيح .

وتغيير المحور لازم فى ذلك العصر ، لازم فى هذا العصر ، لازم فى كل زمن ينحرف فيه الاتجاه عن سوائه ، ولهذا كانت رسالة السيد المسيح نموذجا للرسالات ، ولم تكن آخر الرسالات فى الحياة الانسانية .

لهذا نعتقد ان السيد المسيح كان يغير المحور تغييرا آخر لو انه حضر الدنيا بعد عصره ببضعة أجيال ، ورأى الناس يغرقون فى تعذيب الجسد ويفرحون باطعامه للدود وهم بقيد الحياة .

بل لا حاجة بنا الى الفرض هنا او الاحتمال الذى يقبل الخلاف ، فان المسيح قد غير المحور هذا التغيير فى زمانه : غيره حين قبل انفاق الدنانير فى عطر تمسح به قدماه ، وحين قبل ان يشهد الاعراس ويضرب المثل لاتباعه فى افراح الحياة ، وفى براءة كل فرح يأتى من القلب ويسر الجسد ولا يحزن الروح .

وما كان الاصلاح فى الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات : انت تنهك نفسك لتكنز مليونا فحسبك ان تنهك نفسك لتكنز عشرة آلاف ، ولا تزيد .

أنت تتهالك على جميع اللذات في جميع الاوقات ، فتهالك عليها أياما في الاسبوع ، أو تهالك على بعضها دون سائرها في جميع الأيام .

أنت مشغول الذهن بالعدوان والبغضاء فاشتغل بهما قليلا ولا تجعلهما شغلا شاغلا بغير انقطاع

كلا . لم يكن الاصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات ، وانما كان على الدوام مسألة «محور» ينتقل ، أو مسألة «باعث» يتغير ، وعلى الدنيا بعد ذلك أن تعرف شأنها في مسافاتها ومقاديرها ، حتى يبلغ بها الانحراف غايته فتعود أو يعاد بها الى محورها الذي انحرفت عنه أو الى محور جديد .

اننا لا ننصف السيد المسيح بل ننصف انفسنا حين نعتقد أنه كان يدرك مايقول وهو يقول: «من أخذ منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء» .

أترى السيد المسيح كان يفوته أن الرداء والقميص اللذين يعطيهما المعطى هما الرداء والقميص اللذان يأخذهما الآخذ أو يسلبهما السالب ؟

كلا . ما كان يفوته ذلك ولا ريب ، ولا أدنى ريب .

ولكن النفس الانسانية هي المقصود ، وليس المقصود هو الرداء أو القميص .

المقصود هو أن ترفع النفس الانسانية فوق أشيائها ، بمثل من الامثلة ، يصح أن يكون هذا المثل ويصح أن يكون مثلا سواه !

فليكن العطاء حبا وطواعية . لان من يعطي مجبرا أو يعطي مالا يهمه أن يعطيه يفقد شيئا ولا يملك نفسه .

وليس كذلك من يعطي لانه يريد العطاء : انه يكسب ما أعطاه ولا يضيعه ، لان غنى النفس يقاس بما تعطيه ، وغنى الجسد يقاس

بما ياخذه ، ومن كان لا يبالى أن يعطى العالم كله ليربح نفسه فاخلق به أن يربح نفسه بقليل من العطاء .

أراد السيد المسيح أن يعبد الانسان سيدا واحدا ، ولا يعبد سيدين ، وهذا كل ما أراد .

فمن يملك أموال الدنيا غير عابد للمال فلا جناح عليه .

ومن يعبد الله ويستعبد المال فلا جناح عليه .

ومن حاول غير ذلك فهو غير مستطيع ، وليس قصاراه انه غير مشكور أو غير مأجور .

ونحسب أن النهى عن عبادة سيدين قد أقام الحد واضحا سهلا بين ما هو مباح وما هو محظور فى طلب الدنيا ومتاعها وزينتها . فلا حرج على انسان يملك المال العريض وهو لا يعبد المال ولا يقدم نفسه قربانا على هيكله ولا نجاة لانسان يملك درهمين ولا ينالهما بغير عبادة المال .

ويحسن بنا على الجملة أن نذكر أن السيد المسيح لم يقصد اقامة مجتمع فى مكان مجتمع ، ولكنه قصد الى تهذيب آداب انسانية يعتصم بها ضمير الفرد وضمير الامة ، وأقامها على أساس واضح فى وصايا متعددة لا تضارب بينها

فالجسم أفضل من الطعام واللباس .

والانسان أفضل من السبت .

وغنيمة النفس أربح من غنيمة العالم .

ومملكة الضمير فى قرارة كل انسان أبقى من ممالك العروش والتيجان .

وبساطة الايمان أصلح من حذلقة العلماء والحفاظ ، ولولا هذه الحذلقة لما استعصى على أحد أن يفهم ما يسمع من وصايا السيد المسيح وما جرى مجراها فى كل زمن ، فمن دأب الحذلقة على الدوام أن تجتهد لكيلا تفهم وليس من دأبها أن تجتهد مرة لكى تفهم ،

وعندها فى كل آونة سبب لتعطيل كل فهم وسبب لتعطيل كل عمل وسبب للظهور يصرفها آخر الامر عن بواطن الامور . وهذه الحذلقة هى التى حالت بين المتحذلقين قديما وبين كل عمل بكل وصية ، فليس عندها مستمع لنبى ولا لحكيم .

ان الحذلقة هى التى أبت أن تفهم حين قال القائل: ان العصفور المبكر يجد الدودة قبل غيره... أفليس فى هذا الكلام شىء يفهمه السامع ؟ بلى . وفيه نصح لمن يريد أن يسمع ويعمل . ولكن الحذلقة هى التى قالت فى جواب تلك النصيحة : ان الدودة لو لم تبكر قبل العصفور لما أكلها العصفور .

ان الحذلقة تقول هذا لانها لا تعمل ، فهل تراها كسبت شيئا حين خسرت العمل ؟. كلا فان سخريتها تستقيم اذا كان التأخير أسلم للدودة من التبكير ، ولكنهما يستويان على الاقل ، ان لم يكن التأخير خليقا أن يعرض الديدان لمئات المناقير ومئات العيون ، بدلا من فرد منقار وفرد عين .. !

كذلك يقول السيد المسيح : من طلب منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء ، فتقول الحذلقة ولماذا يحق للطالب أن يملك القميص والرداء معا ولا يحق لمن يعطيهما أن يحتفظ بهما فى حوزته ؟

أفليس فى قول السيد المسيح ما يفهم ؟ بلى . فيه ما يفهم وما يصحح فهما على ضلال ، ولكن الحذلقة لا تريد أن تفهم ولا أن تعمل ، ولا تريد الا ظهورا «على حساب» الفهم والعمل كما يقولون ، ولولا ذلك لما غاب عنها أن الجديد فى الامر هو امتحان المعطى الذى يقتدى به فى الاحسان ، وان طالب الرفد لا خلاف عليه ولا على قيمة عمله من الفضيلة ، وانما الخلاف الذى يحتاج الى جديد هو قيمة الاعطاء من فضيلة السماحة والايثار .

لقد كانت الدنيا تدور على محور الشره والشر والبغضاء

والنفاق ، فحسن ولا شك أن تدور على غير ذلك المحور ، واذا انتقلت منه الى محور القناعة والخير والحب والصدق فلا مشاحة في قياس المسافات ولا تقدير المقادير

بل نقول ان الرسالة كاملة وافية ولو لم يكن هذا الانتقال الا الى حين وفي حيز محدود ، فانما العبرة باضافة هذه القيم الجديدة الى حساب الانسانية ، وشأن الانسانية بعد ذلك وما تستطيع ، وشأن الرسل بعد ذلك وما يستطيعون من تجديد الرسالة كلما انحرفت الجادة أو احتاج ضمير الانسان الى محور جديد .

ملكوت السموات

« انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » .

(قرآن كريم)

هذه آية كريمة لها مرجع من تاريخ كل دعوة ولاسيما الدعوات الدينية الكبرى ، وما من شيء هو أدعى الى التدبر الطويل من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات وبين الغايات التى تنتهى اليها دعواتهم على غير قصد منهم ، بل على خلاف ماقصدوا اليه ، ثم يمضى الزمن وتنطوى المقاصد والغايات فيبدو أن طريق الدعوات كان أهدى من طريق أصحابها ، كأنما الدعوات والدعاة معا وسيلة مسخرة تسير فى عنان الحكمة الابدية ، دون أن يعلم الدعاة أو يعلم المستجيبون له الى أين تسير ، والى أين يسيرون .

ماذا لو أن أهل مكة عقلوا فاستجابوا الى الدعوة المحمدية ولم يدخل المسلمون مكة دخول الغالبين المنتصرين ؟

ان الهجرة من مكة الى المدينة كانت فاتحة الفتوح الاسلامية ، فلو انها ارتفعت من تاريخ الاسلام لتغير ذلك التاريخ ، ولكنه لا يستفيد فيما نعتقد بزوال ذلك الحادث الذى كان محسوبا من العقبات ، بل أكبر العقبات فى صدر الاسلام .

وماذا لو أن بنى اسرائيل فى عصر السيد المسيح قبلوه وصدقوه وفتحوا له أبواب الهيكل مرحبين مؤمنين ؟

كان غاية الأمر أن نبيا من الانبياء يضاف اسمه الى أسماء الانبياء فى كتاب العهد القديم ، وتبقى اسرائيل فى عزلتها كما كانت ، ويبقى العالم كله كما كان من هذه الناحية ، وتبقى الناصرة كما كانت فى التاريخ : منسية لاتذكر ، أو تذكر كما

تذكر أصغر القرى التى تحكمها رومة الخالدة : رومة القياصرة والجبارين المتألهين .

فمما لا ريب فيه أن السيد المسيح قد أراد اسرائيل بدعوته الاولى ، ومن البديه أن يريدهم قبل أن يريد أحدا غيرهم ، لانهم عشيرته الاقربون، ولانهم أصحاب الكتب التي تبشر بالخلاص وتترقب الرسول المخلص من وراء الغيب .

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم : ماذا تركتم للأمم ؟ لانهم أبناء أمة أولى بها أن تستمع الى الحق من أبناء الامم كافة ، وهم غير مختارين .

وقد كان يرسل التلاميذ للدعوة وينهاهم أن يدخلوا السامرة ، ويحذرهم على العموم أن يطرحوا اللآلى تحت أقدام الخنازير .

وعلى رفقه فى الخطاب كان ينتهر المرأة الفينيقية التى أرادت منه كرامة من تلك الكرامات التى يخص بها أبناء يعقوب ، لانه ليس بالحسن أن يؤخذ الخبز من أبناء البيت ليلقى به الى الكلاب .

وكان هذا الايثار بديهيا كما قلنا من وحى الفطرة ووحى الكتب والدراسة ، وكان كذلك حكمة من حكم الدعوة التى يراد لها النجاح ، فان المساواة بين العشيرة الاقربين وبين الغرباء الموتورين كانت خليقة أن تقصى الاقربين ولم يكن يقينا ولا شبيها باليقين أن تدنى اليه أحدا من أولئك الغرباء الموتورين ، الذين يحاربونه ويحاربون قومه ويبادلونهم سوء الظن وتارات الانتقام .

فماذا لو استجاب المدعوون الى الدعوة على أحسن حال وأيسر احتمال ؟ ماذا لو استجابوا بغير عناد وبغير استشهاد !

ان استجابوا جميعا الى الدعوة فقد دخلت الدعوة فى نطاق « العصبية العنصرية » ولم يتغير بها شىء فى غير ذلك النطاق المحدود .

وان لم يستجيبوا جميعا ،واستجابت منهم فئة من فئات شتى ، فغاية الامر انها فرقة تضاف الى فرق الفريسيين والصدوقيين والآسين والغلاة ،بل قد حدث فعلا أن فئة من بنى اسرائيل قبلت المسيحية على أنها « طائفة يهودية » سميت بالطائفة « الابيونية » أى طائفة الفقراء والدراويش ، ثم ذهبت هذه الطائفة فى الغمار فلا هى الى اليمين ولا الى اليسار ، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ اليهود ، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ المسيحيين!

بل حدث فعلا أن كنيسة مسيحية يهودية هجرت بيت المقدس الى شرق الاردن ،واعتزلت كنائس اسرائيل وأقامت شرقا حيث تحرم الاقامة على سائر اسرائيل ، وظلت ردحا من الزمن لا هى اسرائيلية خالصة ولا هى مسيحية خالصة ، ثم ذهبت فى الغمار كما ذهب الابيونيون .

لقد مر بنا المثل الذى ضربه السيد المسيح للمدعوين المتخلفين: مثل الأمير الذى أولم الولائم .وأرسل الى الصفوة المختارين من الاقرباء والصحاب يدعوهم أن يفرحوا معه ويشاركوه فى طعامه وشرابه فلم يجبه منهم أحد ،وتعلل كل منهم بعلة تؤخره الى مابعد يوم الوليمة ، فاقسم لايحضرنها أحد بلغته الدعوة ، وليملأنها بمن حضر ومن لم يحضر ، ومن تزويه الازقة أو تقذف به الطريق ، وأبى أن يبقى مكان على المائدة خلوا من ضيف، وأصبح كل طارق ضيفا مقبولا على الرحب والسعة ،وهكذا تعمر وليمة السماء التى يتأخر المدعوون اليها ، ويتقدم اليها من هم أحق بها ، لانهم يشتهون مايعافه المدعوون المتبطرون .

قال السيد المسيح لمن دعاهم والحف فى دعواهم فانكروه والحفوا فى انكاره : « ان الحجر الذى رفضه البناءون صار على رأس الزاوية .. ان ملكوت الله ينتزع منكم ويوهب لامة تؤتيه ثماره ..

من سقط على ذلك الحجر رضه ومن سقط الحجر عليه سحقه.. هناك يكون البكاء وصرير الانسان ، هناك يدعى الكثيرون ولا ينتخب الا القليلون .

ومنذ استحكمت النبوة بينه وبين الجامدين والمتعصبين قلت وصاياه التى يخص بها « الامة » ويفردها بين الامم ، وكثرت فى وصاياه الآداب الانسانية التى يستحق بها الانسان ملكوت السماوات، فردا فردا كائنا ماكان شان الامة التى ينتمى اليها ، وفهم السامعون من الملكوت انه حق لمن يقصده من بنى الانسان أجمعين .

غير ان ملكوت السماوات لا يفهم على صورة واحدة من روايات الاناجيل المتعددة ، بل لا يذكر بلفظ واحد فى جميع الاناجيل ، فان مرقس ولوقا يذكرانه باسم ملكوت الله ، ومتى يذكره باسم ملكوت السماوات ، ويتفق أحيانا أن يذكر فى جميع الاناجيل باسم ملكوت ابن الانسان .

كذلك يبدو من بعض الاقوال انه حاضر على الابواب ، وان من الاحياء السامعين من لا يذوق الموت حتى يرى ابن الانسان آتيا فى ملكوته (١٦ متى)

ويبدو من أقوال أخرى ان المدى بعيد وان الضلال فى دعواه طويل الامد « لا يضلنكم أحد . فان كثيرين سيأتون باسمى فيضل بهم كثير . وسوف تسمعون بحروب وأنباء ولا يحين الحين بعد .. بل تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتحدث مجاعات وأوبئة وزلازل فى أماكن شتى، وهذه كلها بوادر الاوجاع ، ويسلمونكم يومئذ الى الضيق فتقتلون وتبغضكم جميع الامم فى سبيلى .. ثم يأتى أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين ، وتفتر محبة كثيرين ، ولكن الصابرين الى المنتهى ينجون ، وينادى

ببشارة الملكوت هذه فى أنحاء المسكونة شهادة لجميع الامم »
(٢٤ متى)

وأحيانا يأتى الكلام عنه كأنه قريب ولكنه مفاجئ مجهول الموعد: « اسهروا اذن لانكم لا تعلمون فى أية ساعة يأتى ربكم .. ولو عرف رب البيت فى أى هزيع يأتى السارق ما سرق .. فاستعدوا أنتم كذلك . لانه فى ساعة لاتخطر لكم يأتى ابن الانسان » .

ومن النبوءات ما يقول ان ابن الانسان نفسه لا يعلم باليوم والساعة (١٣ مرقس) وان بوادره وشيكة أن تظهر فى هذا الجيل .

ويشار الى الملكوت احيانا بمعنى مشيئة الله وأوامره وفرائضه : « اطلبوا أولا ملكوت الله وبره » ٦ متى « وقد أعطى لكم أن تعرفوا ملكوت السماوات » ١٣ متى .

وأحيانا يطلق على الرسالة التى يتعلمها التلاميذ من السيد المسيح : « أجعل لكم ملكوتا كما جعل لى أبى » ويقول لوقا ان التلاميذ والاتباع كانوا يحسبون والسيد المسيح ذاهب الى بيت المقدس أن ملكوت الله عتيد أن يظهر فى الحال » ١٩ لوقا .

وقد رأينا فى كتب التعليقات والتفسيرات ان هذه الصفات المتعددة تستغرب وتثير البلبال بين ذوى الآراء ، كأنها أمر غير منتظر فى تقديرهم ، وهى فى اعتقادنا أقرب شىء الى البداهة وطبائع الامور .

فيجب أن نقدر أولا أن السيد المسيح قد أشار حتما الى الملكوت الذى يفهم كل سامع أنه هو العالم الآخر ، وانه يأتى فى نهاية هذا العالم ، وانه اذا أشار الى ذلك الملكوت رجع السامعون بالبداهة الى النبوءات التى جعلت له علامات ، والى كلام المفسرين والمترقبين الذين قرنوا تلك العلامات بنهاية الالف الرابعة أو

نهاية الالف السادسة ، واختلفوا هل يأتى المسيح المرتقب ثم يعود، أو ينتهى العالم الارضى بمجيئه ولا يكون مرجعه بعد ذلك فى هذا العالم الارضى المعهود .

وطبيعى جدا أن يتكلم السيد المسيح عن ملكوت السماوات بهذا المعنى وأن يرجع السامعون الى تلك النبوءات ، ولا موضع للاستغراب فى هذا الصدد . بل الغريب أن يخلو كلام السيد من هذا النذير ، سواء ظهر فى ذلك الوقت او ظهر بعده فى زمن تتطلع فيه الانظار الى النهاية والى تحقيق النذر والبشائر والعلامات .

فاذا ادخلنا هذا الملكوت بهذا المعنى فى تقديرنا فليكن فى الحساب انه باب من ابواب اللبس بينه وبين الملكوت بمعانيه الاخرى، ولا سيما الملكوت الذى تقوم عليه رسالة السيد المسيح خاصة . كما هو الواقع فى جميع الرسالات

ففى رسالات الانبياء الداعين الى العالم الآخر جميعا ملكوت رضوان يتحقق فى السماء وملكوت يعمل له الناس فى هذه الحياة . أو رسالة يستمعون لها فى هذا العالم فيستعفون بها الملكوت فى العالم الآخر .

هذا الملكوت ايضا ـ ملكوت الرسالة المسيحية او ملكوت ابن الانسان ـ يقع فى البال حتما ان السيد المسيح قد تكلم عنه ووصف لاتباعه مطالبه ووصاياه.

ولا بد من لبس هنا مع اللبس الذى يحدث من توجيه المعنى حينا الى ملكوت القيامة، وتوجيهه حينا الى الملكوت بعد القيامة .

أما اللبس فى فهم الملكوت الذى يدور على الرسالة المسيحية ـ او رسالة ابن الانسان ـ فمرجعه من جهة الى تطور الدعوة على حسب قبول المستمعين لها . فالملكوت فى الدعوة التى يخص بها الاسرائيليون غير الملكوت فى الدعوة التى لا يخصون بها ، بل لعلهم يطردون منها ، وتعم الامم أجمعين .

ومرجع اللبس من جهة أخرى الى سمو الرسالة على مدارك السامعين ، ولا مناص من هذا اللبس اذا دعى السامعون الى رسالة سمى جدا مما ترقبوه وتطلعوا اليه واستطاعوا أن يفهموه .

ولا نرى ان المسافة الشاسعه بين نفس السيد المسيح وبين نفوس التلاميذ والاتباع قد برزت فى موضع من المواضع بروزه فى الاسئلة التى توالت منهم عليه وفى الحيرة التى دلت عليها هذه الاسئلة ، حتى نيقوديموس عضو المجمع الاعلى لم يفهم معنى الملكوت الذى يستدعى من الانسان أن يولد ولادة ثانية ويدخل اليه انسانا جديدا كما يدخل الطفل الوليد الى هذا العالم ، وحتى بعد بلوغ الدعوه ختامها ظل التلاميذ يحسبون أن الملكوت يأتى بدولة بنى اسرائيل : «فسألوه قائلين: يارب ! هل فى هذا الوقت ترد الملك الى اسرائيل ؟ فقال لهم : ليس لكم أن تعرفوا الازمنة والاوقات التى أودعها الاب سلطانه .. لكنكم ستنالون قوة متى حل عليكم الروح القدس ، وستكونون شهداء لى فى أورشليم وفى اليهودية جميعا ، وفى السامرة ، والى أقصى المسكونة .

ونعود فنقول ان اللبس طبيعى جدا فى هذا الموقف بين مقصد المتكلم ومدارك السامعين ، وان هذا التفاوت البعيد هو الذى يؤدى بنا الى فهم الملكوت كما أراده السيد المسيح ، لأنه ملكوت لم يكن فى طاقة التلاميذ ان يخلقوه ويصوروه ، وكل مافى استطاعتهم ان يذكروا له أوصافا متفرقة سمعوها فسجلوها والتقطوها كما يلتقط السامع ألفاظا من لغة لا يفهمها ، فاذا أمكننا بعد ذلك أن نخرج تلك الالفاظ مفردات متناسقة مفهومة على صورة واحدة فتلك هى الآية على صحة تلك الصورة ، وانها هى الوصف المقصود

والاناجيل قد ذكرت وصفا متناسقا للملكوت فى مواضع شتى : ذكرت مملكة ليست من هذا العالم ، وذكرت مملكة قائمة فى ضمير الانسان فى كل زمان، اذا ربحها فهو الغانم واذا خسرها فالعالم كله لايجديه ، وذكرت مملكة لايدخلها الانسان الا بنفس طاهرة صافية كنفس الطفل البرىء ، وذكرت مملكة لايفتحها السيف لأنه ما بالسيف يؤخذ فبالسيف يضيع . ولما سأله الفريسيون متى يأتى ملكوت الله؟ أجابهم : انه لايأتى بمراقبة . ولايقول قائل هوذا هاهنا وهوذا هناك ، لأنه هو الآن فى داخلكم» (١٧ لوقا)

فالذين استغربوا الاوصاف ولم يروا فيها الا التناقض والشكوك ! ماذا يصنعون بهذه الصورة المتناسقة ؟ وعلى أية صورة كانوا ينتظرون أن تأتى غير هذه الصورة مع التفاوت بين مدارك المعلم ومدارك التلاميذ ، ومع حضور الملكوت فى أذهان السامعين بمعنى القيامة وروده أحيانا فى كلام السيد المسيح بهذا المعنى ؟ بل كيف كانوا ينتظرون ان تأتى على غير هذه الصورة مع تطور الدعوة تطورا لابد منه بين كلام موجه الى أمة خاصة وكلام موجه الى جميع الأمم ؟

ان الخلاصة المغربلة موجودة بين السنابل والحبوب ، ولكن العيب فى الغربال الذى لايعمل عمله وفى حامل الغربال الذى ينسى ان الغربال لازم وان هذا موضع لزومه على التخصيص

اذا جاءنا رجل لايعرف اللغة الصينية ، ووضع أمامنا خطوطا وأشكالا ، وتسنى لنا ان نخرج من تلك الخطوط والاشكال كلمات تتم بها جملة مفهومه ، فتلك آية الآيات على صدق الصورة المنقولة ، وتلك الصورة اذن أحق بالاعتماد عليها من كلام الناقل الذى يستطيع ان يزيد على الكلام أو ينقص منه ،

أو يدخل عليه التحوير والتبديل حسب هواه

***

تحولت الدعوة من خاصة الى عامة ، ومن أمة واحدة الى سائر الامم ، بل الى « الانسان » فردا كان ، أو عنوانا يشمل كل انسان

وحدث هذا التحول والعالم الانساني متهيىء للدعوة الجديدة من اعماق وجدانه ، وان لم يكن يسيرا عليه أن يفهمها حق فهمها ، أو يسبر أغوارها

والعالم الانساني يتهيأ لهذه الدعوات على حسب حاجته اليها ، ولا يلزم على الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج اليها أو الى شيء من قبيلها

مثله في ذلك مثل التربة التي ينفعها المطر لأنها مهيأة له متعطشة اليه ، ولا محل هنا للحديث عن الفهم وسبر الاغوار

كانت العلاقة العالمية ، أو العلاقة الانسانية قد وجدت من وراء أسوار الامم والاقوام ، ولكنها قد وجدت في بقاع من الارض ولم توجد في سرائر الضمير ، ولعل الناس قد اختبروا منها أضرار العداء والبغضاء وكبرياء الجنس ونفور العصبة ، قبل أن يختبروا منها مزايا الوحدة ويتطلعوا من ورائها الى الاخوة والصفاء

بل تحطمت أسوار الامم والاقوام أمام وطأة الشقاء قبل أن تتحطم أمام دعوة الاخوة والصفاء ، فاتسعت رقعة العالم المتوحد لاناس من جميع العصب والسلالات ، لايشعرون بينهم بوحدة غير وحدة العبودية والضنك ، أما في ربقة الرق الصراح أو في ربقة أخرى لاتقل عنها في القسوة والنقمة ، وهي ربقة الحرمان والقنوط

وقد كان من العسير أن يتمخض العالم الوثنى عن رسول يجمع الاقوام الى دين واحد ، لأن تاريخ الوثنية لم يعهد فيه أن يخرج للدنيا رسلا تملؤهم الحماسة الروحية وتفيض منهم على من حولهم فضلا عن البعيدين عنهم، ولم يعرف التاريخ قط داعية وثنيا تجرد للتبشير والانذار غير حافل بالموت ولا مرتدع بما يلقاه من زواجر الارهاب والوعيد ، وكل مايحدث فى الاديان الوثنية أن تتغلب الدولة التى تدين بها على الشعوب المقهورة فتحملها على طاعة أربابها كما تحملها على طاعة قوانينها واحكامها ، وتفرض عليها العبادات التى تتصل بالشعائر العامة والمحافل الرسمية ثم تترك لها بعد ذلك مايروقها أن تعبده من الارباب والاصنام

أما الحماسة الروحية التى كانت لازمة لتوحيد العقيدة فى العالم الانسانى فلم تعهد قط فى غير الاديان الكتابية أو الاديان الالهية ، ولم يكن لها رسل قط غير الرسل المؤمنين باله أعظم من الدنيا وأعظم من الدول وأعظم من كل موجود .

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول فى تلك الفترة

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول مطرودا فى قومه ، ولم يوجد بينهم مقصور الدعوة عليهم ، فوجد فيه العالم بغيته فى ساعة الحاجة اليه ، وانها لآية من الآيات التى يطول عندها تدبر الباحثين والمؤرخين ، لأنها من التوفيقات التى يكون القول بالمصادفة فيها أصعب وأعجب من القول بالتدبير والتقدير

وتم على يد هذا الرسول نقيض مايتم على ايدى الوثنية فى صولتها وسلطانها ، فان الوثنية تتغلب لأنها دين الدولة الغالبة ، أما هذه الرسالة - رسالة الملكوت السماوى - فقد نشأت فى عشيرة قبيلة ذليلة ، تحكمها تارة دولة الرومان الغربية ، وتحكمها تارة أخرى دولة الرومان الشرقية ، فلم يمض غير أجيال

معـــدودات حتى غزت الدولتين واستوت على العاصمتين ، وصح ماارووه عن جوليان ـ سواء قاله او لم يقله ـ فانتصر «الجليلى» بملكوته السماوى عــــلى ممالك القياصر ، وضم القيـــاصر الى حاشيته ، فمنه يأخذون ماأخذوه باسم قيصر وماأخذوه باسم الله!

الباب الثالث
أدوات الدعوة

فترة العلم

اذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة فى العالم ثبت من انتشارها شيئان على الاقل ، وهما ان العالم كان عند انتشارها محتاجا اليها ، ومستعدا لسماعها ، وهما شيئان مختلفان لا يذكران فى معرض الترادف والتماثل ، لأن الحاجة الى الدعوة كالعلة ، والاستعداد لسماعها كالشعور بالعلة أو كالاستعداد لطلب الدواء ، وقد يتفقان فى وقت واحد ، وقد توجد العلة ولا يوجد معها طلب الدواء ولا قبوله اذا عرض على العليل

وجملة مايفهم من العصور التمهيدية التى خصصنا الكلام عليها فيما مضى أن العالم فى عصر الميلاد كان محتاجا الى الدعوة المسيحية ، مستعدا لسماعها ، سواء قصرنا الكلام على عالم اسرائيل أو عممنا به العالم اجمع

فعالم اسرائيل كان يؤمن بالمسيح المنتظر وبموعده فى تلك الحقبة من الزمن ، والعالم المعمور كان يؤمن ايمانا «سلبيا» بافلاس الوثنية واقفار النفوس من الرجاء ، وكان عامته فى بؤس ويأس ، وخاصته مستسلمين للمتاع أو مستسلمين للتصوف ، من كان منهم يفكر دان بالابيقورية أو دان بالرواقية ، ومن كان مطبوعا على التدين والبحث فى شئون الغيب ، دان بنحلة خاصة من النحل السرية التى تحل فيها المراسم والشعائر محل الفرائض والعبادات

وقد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الابيقورية والرواقية والنحل السرية ، فهم اذن فى حالة الخواء الذى يسبق الامتلاء ، وأسلم مايقال عنه فى صدد العقيدة المقبلة انه لايملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها ، وانه قد يتفتح بقبولها فيكون شعور الخواء من أسباب الاقبال عليها والرغبة فيها .

كان العالم فى عصر الميلاد محتاجا للعقيدة مستعدا لسماعها ما

فى ذلك ريب ، ولكنه مع هـذه الحاجة وهذا الاستعداد لم يكن خليقا أن يظفر بتلك العقيـدة عفوا صفوا بغير جهاد من رسلها ودعاتها ، وبغير كفاية عالية فى أولئك الرسل والدعاة

لم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداده لسماعها مغنيا للعقيدة عن أدوات الفلاح والنجاح. وأولها قدرة الداعى على كسب النفـوس واجتذاب الاسماع والغلبة على مايقاومه من المكابرة والعناد

وقد كانت هذه القدرة موفورة فى معلم المسيحية ، وبحق سمى المعلم ونودى به فى مختلف المجامع والمحافل ، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وايحاء روحى حيوى من طريق التعليم

نودى المسيح بالمعلم فيما روته الاناجيل مرات : ناداه بهـذا اللقب تلاميـذه كما ناداه به خصومه ومن يستمعون له غير متتلمذين وغير مخاصمين

وكان نداؤهم له بهذا اللقب لأنهم يجدون فى كلامه علما واسعا بالكتب والأسفار ، وبديهة حاضرة فى الاستشهاد بها والتعقيب عليها ، ويكفى ما بين أيدينا من الاناجيل للجزم بانه كان يرتل المزامير وكان يحفظ كتب ارميا واشعيا وحزقيال فضلا عن الكتب الخمسة التى نسبت الى موسى عليه السلام ، وفضلا عن اختلاف المذاهب فى تطبيق الوصايا والاحكام

ويرجح بعض المؤرخين انه كان يعرف اليونانية وان الحديث الذى دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة ، لأن اليونانية كانت شائعة فى عصره بين أبناء الجليل، وكان كثير من اليهود خارج الجليل لايفهمون العبرانية ولا الآرامية ويحتاجون الى ترجمة الكتب المقدسة باللغة اليونانية ، ومنهـم من كان يحج الى بيت المقدس فى الاعياد ، ومن أبناء الجليل اليهود من كانوا يسافرون الى الاسكندريه وبلاد الاغـريق ولايتفاهمون بغير اليونانية مع

أبناء جلدتهم هناك ، فلا غرابة فى معرفة السيد المسيح باليونانية كما كان يعرفها الكثيرون من أبناء الجليل ، ولكن المحقق انه كان يعرف العـــبرية الفصحى التى تدرس بها كتب موسى والانبياء ، وانه كان يعرف الآرامية التى كان يتكلمها كلام البلغاء فيها ، وانه اذا عرف اليونانية فانما كانت معرفته بها معرفة خطاب ولم تكن معرفة دراســة ، لأن أقواله خلت من الاشارة الى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة ، ولأن العبارات التى جاءت فى الاناجيل اليونانيــة منسوبة اليه تشف عن أصلهـا الآرامى بما فيها من الجناس أو من قواعد البلاغة وايقاع الالفاظ

على ان هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الاسرائيلية لم يكن فريدا بين أحبار اليهود فى تلك الآونة ، فربما كـان فى بيت المقدس يومئذ مئات من الكتبـة والفريسيين حفظوا من تلك الكتب ماحفظ السيد المسيح ، واقتدروا على الاستشهاد بهـا والتعقيب عليها بعارضة قوية وبديهـــة حاضرة ، ولم تكن لواحد منهـم كفاية المعلم الذى يبث الحيـاة الروحانية فى النفوس وينفث فى الخواطر تلك الراحة التى تشبه راحة السريرة ، حين تتناســق فيها الانغام التى كانت متنافرة قبل أن تجمع وتصاغ

لقد كانت اللغة التى حملت بشائر الدعوة الاولى لغة صاحبها بغير مشابهة ولا مناظرة فى القوة والنفاذ

كانت لغـــة فذة فى تركيب كلماتها ومفرداتها ، فذة فى بلاغتها وتصريف معانيهـــا ، فذة فى طابعها الذى لايشبهه طابع آخر فى الكلام المسموع أو المكتوب ، ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب ، مع غلبتـه القوية على الاذهان والقلوب

كانت فى تركيبها نمطا بين النثر المرسل والشعر المنظوم ، فكانت فنا خاصا ملائما لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال ، وهو نمط من النظم لايشبه نظم الاعاريض والتفعيلات

التى نعرفها فى اللغة العربية ،لأن هذا النمط من النظم غير معروف فى اللغة الآرامية ولافى اللغة العبرية ، ولكنه أشبه مايكون بأسلوب الفواصل المتقابلة والتصريعات المرددة التى ينتظرها السامع انتظاره للقافية،وان كانت لاتتكرر بلفظها المعاد

كان أسلوبه فى ايقاع الكلام اسلوبا يكثر فيه الترديد والتقرير، وليس فى الترجمة العربية مايدل عليه من قريب ، ولكنه مع التأمل تدل عليه من بعيد ، كما فى هذا المثال :

« اسألوا تعطوا

« اطلبوا تجدوا

« اقرعوا يفتح لكم

« لان من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له الباب .

« من منكم يسأله ابنه خبزا فيعطيه حجرا

« او يسأله سمكة فيعطيه حية .

« او يسأله بيضة فيعطيه عقربا .

« فاذا كنتم ـ وانتم اشرار ـ تحسنون العطاء للابناء، فكيف بالاب الذى فى السماء يعطى الروح القدس لمن يسألون »

او كما فى هذا المثال :

« كما فى ايام نوح كذلك يكون فى أيام ابن الانسان

« كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون ، الى اليوم الذى دخل الفلك وجاء الطوفان واهلك الجميع

« كذلك فى أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويغرسون ويبنون ، ولكن اليوم الذى خرج فيه لوط من سدوم امطرت نارا وكبريتا من السماء فاهلك الجميع

« هكذا يكون فى اليوم الذى يظهر فيه ابن الانسان

« فى ذلك اليوم من كان على السقف وامتعته فى البيت فـلا يهبط اليها لياخذها

« ومن كان فى الحقل فلا يرجع الى الوراء . الا تذكـرون امراة لوط ؟

« من طلب الخلاص لنفسـه يهلكها ، ومن اهلكها يحييها

« اقول لكم فاستمعوا : فى تلك الليلة يكون اثنان على فراش واحد فيؤخذ أحدهمـا ويترك صاحبـه .

« وتكون اثنتان تطحنان ، تؤخذ احداهما وتترك الاخرى

« ويكون اثنان فى الحقل يؤخذ هذا ويترك ذاك

« .... حيث تكون الجثـة هناك تجتمع النسور »

***

وقريب من هذين المثالين نذيره لاورشليم

« يا اورشليم . ياأورشليم !

« يا قاتلة الانبياء ، وراجمة المرسلين

« كم مرة اردت ان اجمع ازلادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها

« ولم تريدوا

« هو ذا بيتكم رهين بالخراب »

وقريب منه نذيره لبنات أورشليم :

« يا بنات اورشليم !

« لاتبكين على ، وعلى انفسكن واولادكن فابكين

« أيام يقولون طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثـدى التى لم ترضع

« أيام ينادون الجبـال ان تسقط عليهم ، والآكام ان تكون غطاء لهم

« ان كان بالغض البرطب يصنع هذا ، فبالياس ما ذا يصنعون ؟ »

***

هذى النماذج فيها بعض الدلالة على اسلوبه فى تركيب اللفظ وسياق التدبر والتذكير

اما اسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الامثال فى كل قالب من قوالب الامثال ، ومنه القالب الذى يعول على الرمز ، والقالب الذى يعول على الحكمة ، والقالب الذى يعول على القياس ، والقالب الذى يعول على التشبيهات ، وكلها تتسم بطابع واحد هو طابعه الذى انفرد بين انبياء الكتب الدينية بغير نظير ، وان كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الامثال

فمن نماذج المثل الذى يعول على الرمز مثل الزارع والبذور . « زارع خرج يزرع وفيما هو فى الطريق سقط بعض البذور فجاءت طيور السماء واكلته ، وسقط بعضها فى مكان محجر حفيف التربة فنبتت على الاثر ثم لم يلبث ان اشرقت عليه الشمس فاحترق ، واذ لم يكن له عمق فى جوف الارض جف ، وسقط بعض البذور بين الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يثمر ، وسقط غيرها فى الارض الجيدة فاعطى ثمرا يصعد وينمو ، فاتى واحد بثلاثين وآخر بستين وآخر بمئة . من له اذنان للسمع فليسمع »

ومن نماذجه مثل فتيات العرس : « يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى اخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس : خمس منهن فطنات وخمس غافلات . اما الغافلات فقد اخذن المصابيح ولم يأخذن معها زيتا ، واما الفطنات فاخذن الزيت فى آنيتهن مع المصابيح ، وابطأ مقدم العريس فنعسن جميعا ، ثم علت

الصيحة عند منتصف الليل :هاهو ذا العريس قد اقبل فاخرجن للقائه ، فالتفتت الغافلات الى مصابيحهن تنطفىء وسألن زميلاتهن قليلا من زيتهن فاجبنهن : لعله لايكفينا فاذهبن واشترين حيث يباع . وفيماهن ذاهبات قدم العريس ... وصحبته الحاضرات المستعدات الى محفل الزفاف ، ثم جاءت الغائبات وقد اغلق الباب وطفقن ينادين : افتح لنا ياسيد ... افتح لنا ياسيد . فاجابهن من انتن ؟ انى لا اعرفكن ! »

ومنه قوله : « أنا خبز الحياة.. من يقبل على لايجوع »

ومن نماذج المثل الذى يعول على الحكمة : « لا تطرحوا الدر امام الخنازير » ... « بالكيل الذى تكيلون يكال لكم » .. « ايها المداوى داو نفسك » .. « خمر جديدة فى زقاق قديمة » ... « لاتدع يسارك تعلم بماتصنع يمينك » .. « من ثمارهم تعرفونهم » .. « لاكرامة لنبى فى وطنه »

ومن نماذج المثل الذى يعول على القياس . « ان كنتم تحبون من يحبونكم فاى فضل لكم ؟ اليس ذلك شأن العشارين ؟ »

ومنه فى تبكيت من ينكرون عليه صحبة الخاطئين : « لا حاجة بالاصحاء الى طبيب ، وانما المرضى يحتاجون الى الاطباء »، ومنه : « ان كان النور الذى فيك ظلاما فالظلام كم يكون ! »

ومن نماذج المثل الذى يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه « انتم ملح الارض ، فان فسد الملح فبماذا يصلح ؟ انه لايصلح اذن الا لان يلقى على التراب ويداس . انتم نور العالم ، ولا خفاء بمدينة قائمة على راس جبل ، وما من سراج يوقد ليوضع تحت المكيال ولكنه يرفع على المنار يستضىء به جميع من فى الدار »

ومن نماذجه : « لاتكنزوا لكم كنوزا على الارض حيث يفسد

السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لاسوس ولا صدأ ولا لصوص. وحيث يكون الكنز يكون القلب.

وقد أثر عن السيد المسيح فى جميع الامثال حب المقابلة بين الاضداد لجلاء المعانى وتوضيح الفوارق من وراء هذه المقابلة : « يرون القذى فى اعين غيرهم ولا يرون الخشبة فى اعينهم » ... « يحاسبون على البعوضة ، ويبلعون الجمل » .. « فى الظاهر جدران مبيضة وفى الباطن عظام نخرة » ... « غنى يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل فى سم الخياط » .

ومعظم هذه الامثلة تأتى فى مناسباتها عفو الخاطر ، جوابا على سؤال ، او تعقيبا على حادث عارض ، او تقريعا لمكابر ، فيندر ان يسترسل فيها المعلم البصير الى غير المناسبة التى توحيها ، ولهذا يرجح بعض الشراح المحدثين ان الامثلة المتوالية فى المقاصد المختلفة لم تصدر عنه فى سياق واحد أو جلسة واحدة ، وان الخطبة على الجبل - وهى احفل الخطب بالمقاصد والموضوعات - جمعت من متفرقات كانت منجمة على حسب الموضوعات فى اوقاتها ومناسباتها .

واذا كانت طائفة من عظات السيد المسيح جاشت بنفسه فى اوقات مناجاتها فانتظمت فيها كما تنتظم المعانى المنسوقة فى البديهة الملهمة فقد كانت سرعة البديهة تسعفه فى غير هذه الاحوال ، فتجرى كلماته فى مجراها المألوف على نسق سهل قد يظن به التحضير لانه منتظم غير مرسل ، ولكنه فى الواقع لم يكن محضرا قبل ساعته ، وغاية ما يعرض له من التحضير ان الفكر الذى يجود به لم يخل قط من التفكير فيه وانه تعود التفكير فى المواقف المتشابهة فانسبكت قوالب التعبير فى بواطن قريحته

غير مقصودة ولا متكلفة ، وهى عادة يعرفها من تعودوا التفكير ، والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين الجماهير ، وقد سمعت خطبـاء جادوا بأبلغ آياتهـم الخطابية فى لحظة من لحظات الارتجال الفيـاض بين الشعور المتجاوب والحماسة المنبعثة من القائل والمستمعين ، فهم مرتجلون يخيل اليهم قبـل غيرهم انهم يسمعون كلاما معهودا ، ويوشك ان يتساءلوا : اين ياترى سمعوه قبل الآن ؟ والواقع انهم نقلوه من وعيهم الخفى الى وعيهم الظاهر فكان شانهم كشأن سامعيه فى استغرابه ، والواقع ايضـا ان الناس حين يستمعون اليه يرونه غريبا وقريبا فى وقت واحـد : غريبا لانه كان يسـاورهم ولا يدركونه ، وقريبا لانهم تمثلـوه بفضل بلاغة القائل بعد استعصائه على الادراك .

***

ومن كان كالسـيد المسـيح تربى منذ طفولته على التلاوة فى كتب الانبياء وتتابعت على سمعه ولسانه اصداء المزامير المرتلة ، والامثال المرددة ، واسـتقامت فطرته على الوحى والايحـاء فليس اقرب اليه من أن ينطلق بكلام يحيك فى الاسماع بهاتف الصحف الاولى وهو من نبـع فؤاده واملاء بديهته ، وهذه هى البديهة التى كان يعنيها حيـن يوصى تلاميـذه بالاعتمـاد على الطبع وترك الاهتمام بالتزويق ، والتنميق قبـل السـاعة التى تدعوهم دواعيها للخطاب

ولعل سامعى العظات الدينية فى عصر المسيح قد سمعوا الامثال فى قوالبها مرات كثيرة ، ولعلهم كانوا يعاودون سماعها كلمـا دخلوا معبدا او اسـتمعوا الى خطيب فى غير المعابد ، فان نقاد البيان العبرى والآرامى يردون هذه الصيغ البيانية الى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين . فلم يكن المسيح مبدعها

للامثال ولا لقوالبها التى تعول على الرموز أو الحكم أو التشبيهات أو منطق القياس ، ولكن الامر المحقق ان سامعى ذلك العصر لم يعرفوا قط أريحية كتلك الاريحية التى كانت تشيع فى اطوائهم وهم يصغون بأسماعهم وقلوبهم الى ذلك المعلم المحبوب الذى كان يناجيهم بالغرائب والغيبيات مأنوسة حية يحسبون انها حاضرة فى أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة ، لفرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق ويستولى عليهم من عطفه الطيب وحنانه الطهور .

ومن البيان ما يروع ويهول ويخيل الى سامعه انه يبتعد من مصدره كلما أصغى إليه ، ومنه ما يجذب ويقرب ويخيل الى سامعيه أن كل كلمة منه ترفع حاجزا او تدنى مسافة وتزيل وحشة بين القائل والسميع .. من هذا البيان كان بيان المعلم المحبوب القدير على تقريب سامعيه بالعطف والافهام ، فمن فهم قريب ومن لم يفهم غير بعيد ، وفى وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم فى ظلام الجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون ثم تتفتح فى أذهانهم الخواطر ، وتتفتق فيها الاشياء وتتبين الفوارق بين الاضداد فينجاب الظلام سدفة بعد سدفة ويعقبه النور قبسا وراء قبس ، ويداخلهم على مهل شعور الاعمى الذى يسترد بصره مشدوها بالرؤية لاول مرة ، أو شعور المدلج الذى يصحب الليل من السحر الى الفجر الى الصباح : هداية فى رفق ورحمة ، واقتراب فى غير عناء ولا اقتحام

فى وسعنا أن نتخيل اولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعرفة ، أو يقتربون منه بالعطف والمودة

وفى وسعنا أن نتخيل من ثم فضل الرسول فى الرسالة . فلا

رسالة فى الحق بغير رسول ، ولا سبيل الى قيام المسيحية بغير مسيح ، فأن مصـدر الرسالة الروحية هو زبدتها وجوهرها ؛ وهو الاصل الاصيل فى قـوتها ونفاذها ، وكل ما عـداه فروع وزيادات .

لقد كان لب الرسالة المسيحية فى لب رسولها المسيح : هـداية انسان لاصولة له على احد غير العطف والالهام ومكاشفة القلوب والافهام ، ولو لم يكن فضـل الرسول هو فضل الرسالة لقد كان يوحنا هو الاولى بالسبق فى الميدان لانه صاحب السبق فى الدعـوة وصاحب السـبق فى الشهادة ، ولكنها دعـوة كانت تنتظر صاحبها ، وصاحبها هو المسيح .. وكانت حاجة العالم كله الى الدعوة المطلوبة لا تكفى بغير صاحبها القادر عليها ... والصالح لاقامتها ، لان صاحب الحاجة لا يملك بالبـداهة ما هو محتاج اليه .

إخـــلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الاول فى كل دعوة انهم دعاة ، اى انهم شركاء للمعلم فى نشر الدعوة

أما الفضل الاول للتلاميذ فى الدعوة المسيحية فهو انهم مستجيبون ، فلم يكونوا قادة يدعون غيرهم الى صفوفهم بل كانوا فى الواقع هم الصف الاول السابق الى الاستجابة ثم تلته صفوف اخرى من أمثاله ، ليس فيهم قائد ولا مقود ، وكلهم فى قبول الدعوة سواء .

كان فضل التلاميذ فى الديانة المسيحية انهم اول القابلين ، ولا بد ان نعلم هذا الفارق بين طبيعة القابلين وطبيعة العاملين

فالتلاميذ بالنسبة الى السيد المسيح هم أمته الصغرى ، كبرت مع الزمن على هذا المثال ، فأصبحوا أمة كبيرة تقتدى بتلك الامة الصغيرة فى الاستجابة ، فهم سابقون أعقبهم لاحقون من قبيلهم وهم الصف الاول فى الجيش الواحد ، وليسوا هم جيشا يقابل جيشا آخر بالدعوة فيلبيه وينضوى اليه

كانوا نموذج الامة المسيحية فى أول الرسالة ، ومضى على الامة المسيحية عدة اجيال وهى لا تخالف هذا النموذج فى التكوين ولا فى الطراز ، ومن هنا نقول ان التلاميذ لم يكونوا دعاة فرضوا عقيدتهم على الناس غيرهم ، ولكنهم وغيرهم جميعا مستجيبون للدعوة فوجا بعد فوج ورعيلا وراء رعيل

ان الدعوات قادة ومقودون

ولكن التلاميذ فى الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم ، بل كانوا هم السابقين من صفوف تلاحقت وتعاقبت ، لا فرق فى بنيتها بين أولين وآخرين

وليس فى سيرتهم الاولى ما يفهم منه انهم مميزون بصفة القيادة

فهم جميعا من بيئة واحدة ،وربما كانوا جميعا من سلالة متقاربة او بيوت متجاورة ،كانهم وقعت عليهم القرعة بين المتشابهين والمتماثلين ، ثم امتازوا بعد ذلك بالتعليم والتدريب على يدى السيد المسيح

وكان السيد المسيح ينظر الى بعضهم فيقول له : اتبعنى ، فيتبعه ولا يظهر عليه انه افضل من غيره بمزية عقلية او نفسية الا ان تكون المزية التى يتوسمها فيه السيد فيدعوه من اجلها ، وهى مزية الاصغاء والاتباع

ولم يبد منهم انهم اقدر على فهمه من الآخرين ، فلو اصابت القرعة اثنى عشر آخرين لكانوا فى مثل قدرتهم على التعلم واستعدادهم للقبول ، لان كفاءتهم ولا شك هى الكفاءة الوسطى فى كل طائفة بهذا العدد ومن هذه البيئة ، فلم يكن منهم علم بارز لايتكرر بهذه النسبة فى أية جماعة يقع عليها النظر للوهلة الاولى ، فلا يقال فى واحد منهم انه واحد من مائة أو واحد من الف لايتكرر ، او ان واحدا منهم تعلم مالا يتعلمه أمثاله لو حضروا كما حضر على معلمهم القدير . بل كل مايقال انه مجند يشبه غيره من المجندين ، والفضل للقائد بعد ذلك فيما ظفر به من التدريب والتهذيب

وقد وقع عليهم الاختيار كما جاء فى الاناجيل

ولكن لايبدو من ذلك الاختيار انه كان اختيارا نادرا او مستعصيا على القائد الحكيم الحصيف ،ولعل العامل الاكبر فيه انهم مختارون من طائفة متعارفة متآلفة ، وان اجتماعهم هكذا خير واصلح من اجتماعهم بدد من بيئات متباعدة ، فان المتآلفين اولى بمصاحبة بعضهم بعضا من المتباعدين

ونحسب ان التشبيه بالتجنيد هنا خليق ان يقرب الى الاذهان

هذا المعنى الذى نرى له المكان الاول فى فهم الدعوة واسباب سريانها

فالمجندون يقترعون ، وكلهم متماثلون فى شروط التجنيد ، ولكنهم مع هذا يعرضون على القائد فيعزل منهم فئة متجانسة فيما يراه ، وكل الفئات الاخرى تضارعها على الجملة فى شروط التجنيد

لم يكونوا طينة من البشر غبرطينة السواد لولا تلك النفحة العلوية التى نفثتها فيهم روح المعلم القدير

كان يعرف عيوبهم ، وكانوا فى أمانتهم واخلاصهم لايغالطون انفسهم فى تلك العيوب :

كان يخاطبهم فلا يفهمونه فيسألونه مزيدا من التوضيح ، وكان يخامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكرونه ، وربما فاتحوه بالشك ابتداء وسألوه ان يزيدهم ايمانا ، فيزيدهم ويعلمهم كيف يتقون امثال هذه الشكوك

ولم يحسب قط انهم طود لايتزعزع وانهم عزيمة لاتتضعضع وانهم يواجهون الجنة فى كل حال ولا يدركهم ضعف النفس يوما امام هول من الاهوال

فقد انبأهم انهم سيتخلون عنه ، وقد ناموا وهو يسألهم ان يسهروا معه ، وقد لامهم غير مرة لانهم يتنافسون على السبق او لانهم يستبطئون جزاءهم على الايمان ، أو لانهم - بعد وعظهم وتذكيرهم - لم يزالوا يفرقون بين الناس ويدينون بشريعة غير شريعة الحب والغفران ، ولم يكن على اليقين ينتظر منهم اكثر مما نظر ، او تفوته منهم فى اوائلهم حالة ظهرت له فى اواخرهم ولكنه علم المطلوب منهم كله فوجد فيه الكفاية : علم انهم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم ، وليس مطلوبا من الناس فى العالم

الواسع ان يدركوا مقاما من الايمان فوق مقام الاخلاص وحسن الاستعداد لاصلاح العيوب ، وهذا المقام قد ادركه التلاميذ يوم وكل اليهم ان يسبحوا فى ارض الله ويجعلوا من انفسهم مثلا يقتدى به المخلصون

فهو لم يقصد اعدادهم ليخرجهم طرازا معصوما لاعيب فيه ولا مأخذ فيه ، ولكنه قصد اعدادهم ليحسنوا القدوة ويجمعوا حولهم من يسلك مسلكهم ، ويستقبل معهم قبلتهم ، ويكلفوا انفسهم غاية مايستطيعون ، وقد يستطيع من يقفوهم فوق ما استطاعوه

***

ومن العبارات ذات المغزى الكبير فى الانجيل ان المسيح مضى شوطا بعيدا فى دعوته ولم يقل لهم انه هو المسيح المنتظر ، فشاع ذكره فى القرى وتساءل الناس عنه : من يكون ؟ فمنهم من يقول انه يوحنا المعمدان قد بعث من الموتى ، ومنهم من يقول انه الياس ، ومنهم من يقول انه نبى مبعوث ، والمسيح لايقول للتلاميذ انه المسيح . بل سألهم بعد شيوع ذكره وتساؤل الناس عنه : انتم من تقولون انى اناهو ؟ فأجابه بطرس : انت المسيح . فانتهره واوصاهم الايذكروا ذلك لاحد فى رواية انجيل مرقس . اما فى انجيل متى فقد روى ان بطرس قال : « انت هو المسيح بن الله الحى » فأجاب يسوع وقال : طوبى لك ياسمعان ابن يونا . أن مخلوقا من لحم ودم لم يعلن لك ولكنه ابى الذى فى السماوات ، وانا اقول لك انك انت بطرس (١) وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى وابواب الجحيم لن تقوى عليها ، واعطيك

(١) الكلمة الآرامية صفا بمعنى حجر كما فى العربية وبطرس . بيتر . فى ترجمة الكلمة باليونانية

مفاتيح السماوات فكل ماتربطه على الارض يكون مربوطا فى السماوات ، وكل ماتحله على الارض يكون محلولا فى السماوات ثم اوصى تلاميذه الا يقولوا لاحدانه هو يسوع المسيح »

اما فى انجيل لوقا فالرواية اقرب الى رواية انجيل مرقس : « ففيما هو يصلى على انفراد كان التلاميذ معه فسألهم قائلا ماذا تقول الجموع عنى ؟ فأجابوا انهم يقولون يوحنا المعمدان ، وآخرون يقولون الياس وآخرون يقولون ان نبيا من القدماء قام . ثم سألهم : وانتم من تقولون ؟ فقال بطرس : مسيح الله . فانتهرهم واوصاهم الا يقولوا ذلك لاحد »

والرواية فى يوحنا أقرب الى تصوير ماقدمناه ، فان السيد المسيح احس ان الناس يتراجعون عنه ، وان كثيرا من تلاميذه رجعوا الى الوراء ولم يمشوا معه ، فقال للاثنى عشر : العلكم انتم تريدون ايضا ان تذهبوا ؟ فأجاب سمعان بطرس : يارب ! الى أين نذهب ؟ كلام الحياة الابدية عندك ، ونحن قد آمنا وعرفنا انك أنت المسيح ابن الله الحى . فأجابهم : الست أنا اخترتكم ... وواحد منكم شيطان ! »

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ فقال لهم كما جاء فى انجيل يوحنا : « قال يسوع لليهود الذين آمنوا به انكم ان ثبتم فى كلامى كنتم بالحقيقة تلاميذى ، وتعرفون الحق والحق يحرركم . فأجابوه : اننا ذرية ابراهيم ولسنا عبيدا لاحد فكيف تقول انكم ستصيرون أحرارا ؟ قال : الحق الحق اقول لكم ان كل من يعمل للخطيئة فهو عبد للخطيئة ، والعبد لا يبقى فى البيت ابدا . انما يبقى فيه الابن الى الابد . فان حرركم الابن فبالحقيقة تكونون احرارا .. انا عالم انكم ذرية ابراهيم . لكنكم تريدون قتلى لان كلامى لا يقع منكم موقعا ..

انا اتكلم بما رأيت عند ابى وانتم تعلمون ما رأيتم عند ابيكم . فأجابوه : ان اباانا ابراهيم . قال: لو كان اباكم لعملتم عمله ولكنكم الآن تطلبون دمي وانا انسان كلمكم بالحق الذى سمعه من الله . هذا لم يعمله ابراهيم وانتم تعملون اعمال ابيكم . فقالوا له : اننا لم نولد من سفاح لنا اب واحد هو الله . قال لو كان الله اباكم لكنتم تحبوننى لاننى خرجت من قبل الله واتيت اليكم . انني لم آت من نفسي بل هو أرسلني ... انتم من اب هو ابليس ... .

فأجابه اليهود : « لحسن تقول انك سامرى بك شيطان . وبعد ان قال لهم : ان من يحفظ كلامي لن يرى الموت عادوا يقولون الآن تبين لنا ان بك شيطانا . قد مات ابراهيم وانت تقول : ان حفظ احد كلامي لن يذوق الموت . من تجعل نفسك ؟ العلك اعظم من ابينا ابراهيم الذى مات »

والعبرة من هذه القصة ان السيد المسيح مضى فى دعوته زمنا ولم يذكر لتلاميذه انه هو المسيح الموعود ، وانه كان يعلم ممن يطلبون التتلمذ عليه انهم لا يدركون ما يقول ، ولا يفرقون بين لغة الحس ولغة الروح او لغة المجاز ، وانه اشفق يوما ان ينفض عنه تلاميذه المختارون كما انفض هؤلاء الذين أرادوا ان يحسبوا انفسهم من التلاميذ وزعموا انهم مثله فأنكر عليهم دعواهم وقال لهم : انما بنوة الله بالاعمال وانما انتم بأعمالكم ابناء ابليس !

وقد علم المسيح انه لن يبقى طويلا مع طلاب التلمذة عليه الى الابد ، وانه لن يبقى معهم حتي يبلغوا من الدراية والايمان تلك الغاية المثلى التى ليس فوقها غاية فان صمد معه اناس يضعفوا تارة ولا يحسنوا فهمه تارة اخرى ولكنهم يحسنون الظن ويترقبون

الامل فى الخلاص من هـــذا الطريق ، فاولئك على علاتهم خير من المتتلمذين الذين يسيئون الفهم ويستكبرون ويأتمرون به ليقضوا عليه .

***

والشائع ان التـــلاميذ كانوا طائفه من صيادى السمك فى بحر الجليل ، والمفهوم من هذا عنـــد الناس ممن يعرفونهم بالصـــناعة على السماع انهم فى طبقة عمال الصيد الاميين ، ولكنه فهم متعجل مبنى على قياس غير صائب . فالواقع انهم كانوا طائفـــة تقـــر وتكتب وتتردد على مجامع الوعظ والصـــــلاة وتراجع ماقيل عن النبوءات ، لم يبلغوا فى العـــلم مبلغ الفقهاء فى زمانهم ، وهو خير لانهم لو كانوا من فقهاء زمانهم لركبهم الغرور وقابلوا الدعـــوة بالتحدى والمكابرة . ولكنهم لم يبلغوا كذلك مبلغ الامية الجاهلة فى الغباء ، وكان منهم من نسميه فى عصرنا هذا بكاتب الحسابات او مامور التحصيل وهـــو متى العشار صاحب الانجيل المعروف باسمه ، وقدرته عـــلى كتـــابة انجيل « باللغة اليونانية كما هو الارجح » قدرة لاتتاتى لغير المثقفين ومنهم يوحنا الذى ينسب اليه الانجيل الرابع ، وهو ابن خالة المسيح او من بنى خؤولته ، وكان صاحب عمل ناجح فى تجـــارة السمك يشارك فيه اخوه يعقوب كما يؤخذ من انجيل مرقس حيث يقول : انهمـــا تركا اباهمـــا فى السفينة مع الاجراء وذهبا وراء السيد المسيح

ومنهم جيمس قريب المسيح ويوحنا و « ابن الرعد » كمـــا سماه المسيح لقوته فى الانذار وتشديد النكير ، ومنهم بطرس وهو متكلم جرىء صلب العزيمة مدرب على حمل السلاح كمـــا يؤخذ من بعض اخبار الانجيل ، وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة الناس فى أمر الدعوة ، واكثرهم واجه الموت فى

عمله لنشر الدعوة ولم يحفل بمقاومة ذوى البأس والسلطان

وقد استمالت الدعوة اليها فى عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين العلماء مثل نيقوديمس عضو المجمع الاعلى ، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول ، ومنهم بولس الرسول نفسه وهو استاذ فى فقه الدين عالم بالتواريخ ، واكثر هؤلاء المثقفين مالوا الى الدعوة عطفا على التلاميذ المجاهدين الذين نكلت بهم السطوة الغاشمة ، لانهم خارجون على نظام من العقيدة والعادة يحتقره اولئك المثقفون ولا يجهلون فعل الحماسة الروحية فى تقويضه او الاجهاز عليه

***

ومن المعاصرين من يحلو له ان يحسب السيد المسيح داعيا الى الفوضى السياسية متحللا من النظام ، لشدة انحائه على الشريعة والجامدين عليها والمنافقين باسمها . وفاتهم ان الشريعة الفاسدة فى ايدى الجامدين او المنافقين هى الفوضى فى صورة اخرى ، ومن يدحضها وينحى عليها لن يكون من الفوضيين ولا اعداء النظام

أما البينة فى الواقع على سخف هذا الحسبان فهو تنظيمه لتلاميذه وترويضه لهم على الطاعة وانكار الذات ، وتقسيمه للاعمال فى مجتمعه الصغير - مجتمع التلاميذ - بين أمين للصندوق ، ومباشر لمطالب الجماعة ، وراع يرعى القطيع فى غيبة السيد ، وهم فئة قليلة لا تجاوز العشرين مع حسبان التلاميذ وغيرهم من الطارئين

وأدخل من هذا فى باب التنظيم انه اختار اولا اثنى عشر تلميذا ثم اختار بعدهم سبعين واوصاهم ان ينطلقوا بالدعوة اثنين اثنين فى كل اتجاه ، وانهم حين عادوا من رحلتهم اخذهم

ناحية فى الجبل ليستمع منهم ويراجع اعمالهم ، ويزيدهم من الوصية والارشاد

وقد جعل كل مناسبة للدعوة مناسبة لتعليم اولئك التلاميذ المختارين ، وكان يحذرهم على الدوام من الفتنة الموبقة التى يتحطم عليها نظام كل جماعة .. وهى فتنة التنافس على الرئاسة، فعلمهم ان الاول فيهم هو خادمهم الاول ، وضرب لهم مثلا فذا فى تاريخ الدعوات ليوقوا جماعتهم غواية الرئاسة كلما ذكروه ، فجمعهم فى محفل ليغسل اقدامهم بيديه ، ونفر بعضهم اول الامر ولكنهم عادوا فأذعنوا حين علموا العبرة التى عناها بهذه القدوة ، وقال الذين نفروا اول الامر من هذا التقليد انهم يودون لو يأمرهم بأن يطيعوه فى غسل الايدى والرءوس

وحصر جهده كله فى تعويدهم « انكار الذات » وهو فضيلة الفضائل فى الاعمال العامة ، فعلمهم ان يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم ، ثم اذن لهم ان يقبلوا ضيافة البيوت التى يدخلونها لدعوة اهلها ، ولكنه قال لهم : « لاتحملوا كيسا ولا مزودا ولا احذية ... واى بيت دخلتموه فقولوا سلام ... واى مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى سبلها وانفضوا غبارها من ارجلكم »

وكرر لهم الوصية بالبساطة فى العمل والكلام فأمرهم « الا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون لانهم يلهمون فى تلك الساعة مايقولون ، وليسوا هم المتكلمين بل هو روح أبيهم يتكلم فيهم »

ولم يخف عنهم انهم ملاقون ويلا من الناس فليكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام . اما اذا جد الجد فلا يخافن من يهلك الجسد وليخافن من يهلك الروح

وقد أثمرت رياضة الحب فى تدريب هذا الجند الروحانى

مالا تثمره رياضة القسوة والصرامة فى تدريب جنود القتال، فخرجوا يعملون وهم يعلمون ان الوناء فى اداء الامانة يصغرهم امام انفسهم ، ويصغرهم امام الله ، وليس اقسى على النفوس من الشعور بهذا الصغار

وما هو الا ان حان موعدهم ليعملوا وينتشروا فى الارض حتى خرجوا الى كل وجهة وابعدوا الرحلة فى كل مكان معمور ، فمنهم من وصل الى جزر الهند الشرقية كالرسول توما ، ومنهم من وصل الى سكيثية وآسيا الصغرى كالرسول اندراوس ، ومنهم من شغل بنفسه فى البلاد الاوربية فأرسل صحايته الى افريقية الشمالية ، وعمت الدعوة مصر وبلاد العرب والعراق ، فضلا عن الدعوة فى فلسطين

ولكنهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية كما حفلوا بخطاب « الامم » فى الجليل وآسيا الصغرى والاسكندرية ، وافادهم التمهيد الذى سبقهم به طوائف اليهود واصحاب النحل السرية فى تنظيم الدعوة ، فعملوا كما كان يعمل الآسون والغيلاة الغيورون ، يخرجون اثنين اثنين وينشرون الخلايا فى كل بقعة ، ويحفظون الصلة بين تلك الخلايا بالمراسلة والزيارة ، وهنا يصح ان يقال ان الدعوة الجديدة استفادت من الدعوات التى سبقتها فى العصر السابق لعصر الميلاد ولا جرم يكون اكبر النجاح الذى اصابوه ملحوظا فى آسيا الصغرى والاسكندرية حيث عرف من قبل نظام الخلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ

كذلك يبدو اثر « الحالة العالمية » فى انتشار الدعوة الجديدة من ظاهرة رائعة تكررت فى كل أمة . فقد كان المدعوون الى الدين الجديد من جميع الناس سراعا الى القبول ، حراصا على المعاونة والتأييد ، ولم يصب الرسل خطر الا من قبل السلطة

الغالبة ، حيث تصطدم عبـــادة القياصرة بعبادة الله

وكان أشدهم حمـاسة لدينه يلجأ الى المجاملة رجاء ان تكسبه هذه المجاملة بعض المؤمنين الذين يعرضون عن الدعوة اذا واجهتهم الصراحة بغير تقية ، فكان بطرس في انطاكية يجامل المحافظين ولا يعاشر أبناء الامم كلما احس حوله بقوم من « آل يعقوب » فوبخه الرسول بولس علانية وحـذره من مخالفة الدعوة في سبيـل مرضاة الناس

على أن بولس نفسه كان يتالف القلوب ببعض المجاملة ، وكان كما قال في سـفر كورنثوس الاول « ... استعبدت نفسي للجميع لـكي اربح الاكثرين ، وصرت لليهودي كيهودي لأربح اليهـود وللناموسيين كالنـاموسيين ولغيرهم كأنني بغير ناموس ... صرت لكل كل شيء لعلي استخلص من كل حال قوما ... »

ومـن ثم ولا شك خالـط المسيحيين الاول اناس ممـن تحولوا الى المسيحية من الوثنية ، ونقلوا معهم بعض عاداتهـا وشعائرها ، وشملهم الاغضاء عينا لعلهم بعد هجر الوثنية يستقيمون على منهاج الدين الجديد

ومن بدع القـرن العشرين سهولة الاتهام كلمـا نظروا في تواريخ الاقدمين نوجـدوا في كلامهم انباء لا يسيغونها وصفات لا يشاهدونها ولا يعقلونها ، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكـذب فيما كانوا يثبتونه من اعاجيب العيان ، او اعاجيب النقـل والرواية ، ولكننا نعتقـد ان التاريخ الصحيح يأبى هـذا الاتهام لانه اصعب تصديقا مـن القول بأن اولئك الدعاة ابرياء من تعمد الكذب والاختلاق ، فشتان عمل المؤمن الذي لا يبالي الموت تصديقا لعقيدته ، وعمل المحتال الذي يكذب ويعلم انه يكـذب وانه يدعو الناس الى الاكاذيب ، مثل هذا لا يقدم عـلى الموت في سبيل عقيدة مدخولة وهو اول من يعلم زيفها وخداعها ، وهيهات

ان يوجد بين الكذبة العامدين من يستبسل فى نشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون . فاذا كان المؤرخ الصادق من يأخذ بأقرب القولين الى التصديق فأقرب القولين الى التصديق ان الرسل لم يكذبوا فيما رووه وفيما قالوا انهم راوه او سمعوا ممن رآه ، وليس بالمخالف للمعهود فى كل زمن ان يصدق الانسان عيانا مايصدقه فى قرارة نفسه ، وبخاصة حين يجمع الالوف على تصديقه ولا يوجد بين قائليه وسامعيه من يحسبه من المستحيل

وليذكر ادعياء التمحيص فى عصرنا هذا اننا نطلب من الرجل فى القرن الاول للميلاد ان يكذب انسانا لغير سبب وهو يطمئن اليه ولا يتهمه بالتلفيق والاختلاق . ومن التكذيب لغير سبب فى ذلك العصر ان يبادر السامعون الى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجزات ، فذلك شبيه فى عصرنا هذا بمن يكذب انسانا لانه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصناعية لا غرابة فيها ، ولا سيما اذا كان المتكلم غير معهود فيه ان يتعمد الكذب والاختلاق

ان اسخف السخف ان يقال ان دينا من الاديان قام على الاعاجيب والخوارق . ان تصديق الخوارق والاعاجيب هو نفسه ايمان كأقوى الايمان ، وما خلت دعوة دينية قط من احاديث هذه الخوارق والاعاجيب ما يعقل منها وما لا يعقل ، ولكن لم يحدث قط اقبال كذلك الاقبال الجارف الذى تلقى به الناس رسل المسيحية . لانهم تلقوهم بنفوس مقفرة متعطشة . ونظروا امامهم فرأوا قوما مثلهم يؤمنون غير مكترثين لما يصيبهم وغير متهمين فى مقاصدهم ، فاصغوا اليهم وآمنوا كايمانهم ، ولولا ثقة المسيح عليه السلام بهذا الاقبال لما اوصى تلاميذه ان يذهبوا حيث يستمع لهم وينفضوا عن اقدامهم غبار كل بلد يتلقاهم بالصدود والنفور

الأناجيل

الانجيل كلمة يونانية بمعنى الخبر السعيد أو البشارة ، وقد تداول المسيحيون فى القـــرن الاول عشرات النسخ من الاناجيل ثم اعتمد آباء الكنيسة اربع نسخ منهـــا بالاقتراع - أى بكثرة الاصوات - وهى انجيل مرقس وانجيل متى وانجيل لوقا وانجيل يوحنا ، مع طـــائفة من اقوال الرسل المدونة فى العهد الجديد

ويرجح المؤرخون المختصـون بهذه المباحث ان الاناجيل جميعا تعتمد على نسخة آرامية مفقـودة يشيرون اليهـــا بحرف « ك » مختزلة من كلمة كويل Quelle بمعنى الاصل ، ومنهم من يسمى هذه النسخة « لوجيا » Logia بمعنى الاقوال . ويريدون بهـا الاقوال الشفوية التى سمعت ثم كتبت على القول الراجح عنـدهم باللغة الآرامية ، ويعللون اتفاق متى ولوقا فى بعض النصـــوص باعتمادهما معا على تلك النسخه المفقودة

أما الاناجيل الموجـودة الآن فقد كتبت جميعا باليونانية العامة Koine ولوحظ فى ترجمتها انها تعتمد على نصـــوص آرامية وتحافظ على مافيها من الجناس وترادف المعانى والمفردات ، وتتفق الآراء على ان هـــذه الاناجيل لاتحتوى كل مافاه به السـيد المسيح ، اذ جاءت فى اعمـــال الرسل التى تضمنها العهـــد الجديد كلمة منسوبة الى السيد المسيح لم ترد فى الاناجيل وهى « تذكروا كلمات المسـيح ان العطاء مغبوط اكثر من الاخذ » ... وجاءت فى الاناجيل الاخرى التى لم تعتمد كلمات من هـذا القبيل ، وكشفت أوراق بردية فى مصر ترجع الى منتصف القرن الثانى لاتشبه الاناجيل المعتمدة فى نصوصها

وتتفق الآراء ايضـــا على ان نسختين من الاناجيل كتبهمـــا مسيحيان لم يجتمعـــا بالسيد المسيح ولم يسمعا منه ، وهمـا نسخة مرقس التى دون فيهـــا ماسمعه من بطرس الرسول بغير

ترتيب وعلى غير قصد منه ان تجمع فى كتاب ، وقد كتبها فى رومة بعد مقتل الرسول وليس معه احد من التلاميذ ، ويتراوح تاريخ كتابتها بين سنتى سبع وستين وسبعين

والنسخة الاخرى هى نسخة لوقا صاحب بولس الرسول ، دون فيها ماسمعه منه ، ولعله اضاف اليها جزءا من النسخة المفقودة ثم جزءا من انجيل مرقس بعد اطلاعه عليه ، وكانت كتابتها على الارجح سنة ثمانين

أما انجيل يوحنا فهو آخر الاناجيل كتابة ومراجعة ،واكثر النقاد على انه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ السيد المسيح ، وآخرون يعتقدون انها بقلم يوحنا آخر كان فى افسس ولم ير السيد المسيح.. لان يوحنا تلميذ المسيح هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف على أصح الاقوال فى سنة ست وتسعين ، ولا يظن ان مؤلفا واحدا يكتب فى وقت واحد كتابين بينهما مثل ذلك التباين فى المنهج والفحوى

على أن الاب فرار فنتون مترجم الانجيل « طبعة اكسفورد » يعن له ان انجيل يوحنا هو اقدم الاناجيل ، وانه كتبه اولا بالعبرية بين سنة ثلاثين وسنة أربعين ثم نقله الى اليونانية ، ولكن تأخر الزمن الذى كتب فيه هذا الانجيل ثابت من تفصيله بعض ما اجملته الاناجيل ، وزيادته فى التعبيرات الفلسفية ، وتوسعه فى شرح العقائد التى أثرت عن بولس الرسول ، ولا يظن انه كتب قبل سنة ست وتسعين

والترتيب المفضل عند المؤرخين ان انجيل مرقس هو اقدم الاناجيل ، ثم يليه انجيل متى فانجيل لوقا ، وهى الاناجيل الثلاثة التى اشتهرت باسم اناجيل المقابلة ، لامكان المقابلة بين مافيها من الاخبار والوصايا على اختلاف الترتيب ، مع العلم بأنها كتبت فى الاصل مرسلة بغير اقسام وبغير مواضع للوقت

والالحاق، ولم تقسم الى اصحاحات قبل القرن الثالث عشر للميلاد

وليس من الصواب أن يقال ان الاناجيل جميعا عمدة لا يعول عليها فى تاريخ السيد المسيح، لانها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب فى الزمن والمكان ، ولانها فى اصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ ، ولانها روت من اخبار الحوادث ما لم يذكره احد من المؤرخين ، كانشقاق القبور وبعث موتاهم وطوافهم بين الناس وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال

وانما الصواب انها العمدة الوحيدة فى كتابة ذلك التاريخ، اذ هى قد تضمنت أقوالا فى مناسباتها لا يسهل القول باختلاقها ، ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثاراها ، ورفضها على الجملة اصعب من قبولها عند الرجوع الى أسباب هذا وأسباب ذاك

فانجيل متى مثلا ملحوظ فيه أنه يخاطب اليهود ويحاول ان يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة، ويؤدى عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس فى منتصف القرن الاول للميلاد

وانجيل مرقس على خلاف ذلك ملحوظ فيه أنه يخاطب « الامم » ولا يتحفظ فى سرد الاخبار الالهية التى كانت تحول بين بنى اسرائيل « المحافظين » والايمان بالاهية المسيح

وانجيل لوقا يكتبه طبيب ويقدمه الى سرى كبير ، فيورد فيه الاخبار والوصايا من الوجهة الانسانية ، ويحضر فى ذهنه ثقافة السرى الذى أهدى اليه نسخته وثقافة امثاله من العلية

وانجيل يو حنا غلبت عليه فكرة الفلسفة وبدأه بالكلام عن « الكلمة » Logos ووصف فيه التجسد الالهى على النحو الذى يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة

وسواء رجعت هذه الأناجيل الى مصدر واحد أو أكثر من

من مصدر ، فمن الواجب أن يدخل فى الحسبان أنها هى العمدة التى اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس الى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفى سنة عمدة أحق منها بالاعتماد

ونحن قد عولنا على الاناجيل ولم نجد بين أيدينا مرجعا أوفى منها لدرس حياة الرسول والاحاطة بأطوار الرسالة وملابساتها ، ولكننا نتبع فى مراجعتها طريقة غير التى درج عليها مؤرخو الوقائع والاخبار ، فلا نراجعها من حيث هى وقائع تاريخية ولا من حيث المقاصد التى أرادها كتابها ورواتها ، ولكننا نجمع الوقائع والاخبار ونسأل عما وراءها من الابانة عن شخصية الرسول . وفى هذه المراجعة تنفعنا الوقائع المستغربة كما تنفعنا الوقائع المألوفة وتهمنا الاغراض المقصودة وغير المقصودة ... فهل وراء هذه الاخبار «شخصية متناسقة» مفهومة ؟ ان كانت هناك علامات على تلك الشخصية المتناسقة فحسبنا ذلك من جميع الوقائع والاخبار ، وعلينا أن نفهم هنا أن النقائض فى هذه المراجعة قد تكون من أسباب التصديق ، ولا تكون من أسباب الشك والانكار ، ثم يتأتى لنا أن نجعل هذه الشخصية نفسها محكا لكل واقعة ولكل خبر ولكل كلمة مروية ، فما خرج من السواء فهو فضول

ومن الامثلة على الاختلاف بين هذه الطريقة وبين طريقة المؤرخين الذين يطلبون الوقائع لذاتها أن الغرائب هنا شئ يجب أن نبحث عنه ان لم نجده ماثلا بين أيدينا ، فان خلو هذا التاريخ من الغرائب هو الذى يستغرب وليس هو المألوف الذى يدعو الى الترجيح أو اليقين . وهل يخلو من الغرائب سجل قوم يؤمنون بها ولا يشكون فى وجودها ؟

ونحب هنا أن نبين موقفنا من الخوارق والمعجزات حيث وجدت فى تواريخ الاديان ، فنحن نسأل هل هذه المعجزة لازمة فى تفسير

مسألة من المسائل ؟ فان كان تفسير المسألة ميسورا بغيرها فلا حاجة بنا الى الجدل فى امكانها أو استحالتها ، لان التفسير الذى يقبله كل انسان يغنى عن التفسير الذى يضطرنا الى امتحان الممكنات وامتحان الرواة

أما راينا نحن فى امكان المعجزات فهو رأينا فى امكان جميع الاسباب . فان العقل قاصر عن تعليل الحوادث بأسبابها ، وليس من العقل أن يقال أن هذه الاسباب المسماة بالطبيعة هى العوامل الفعالة فى ايجاد الاشياء. واصح مايقال فيها قول الغزالى رحمه الله أن الاسباب والمسببات تحدث معا ، ولا تزيد علاقتها بعضها ببعض على علاقة المصاحبة والتوافق فى الاوقات ، والا لزم أن تكون المادة الوفا من المادات ، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الاخرى ولا يقول بذلك عقل سليم

فاذا كان العقل لا يعلل الاسباب الطبيعية فمن الشطط أن يتعجل بانكار المعجزات والجزم باستحالتها

ومتى ناقشناها فلتكن مناقشتنا لها كمناقشة الاسباب: هل هى لازمة لتفسير هذه المسألة؟ وكما نقول هل هذا السبب لازم نقول أيضا : هل هذه المعجزة لازمة للفهم والتفسير ؟ وبهذا القسطاس يجب أن توزن الحوادث ويدرس تاريخ الأديان وغير الاديان

ونحن لم نتعرض للمعجزات التى وردت فى الاناجيل لان تفسير الحوادث منساق لنا بغيرها . فليس فى الاناجيل أن معجزات الميلاد حملت أحدا على الايمان بالرسالة المسيحية بعد قيام السيد المسيح بالدعوة ، وكثيرا ما نقرأ فيها أن المعجزة لا تقنع المكابر ، وأن الجيل الشرير يطلب الاية ولا يعطاها ، وأن المنكرين كانوا يعجبون لما يرونه احيانا ولكنهم كانوا يزعمون أنه من فعل

الشيطان ، بل كان من أسباب التعجيل بمصادرة المسيح أنه كما قال الكهنة يصنع كثيرا من المعجزات

وبعد فمن الحق أن نقول أن معجزة المسيح الكبرى هى هذه المعجزة التاريخية التى بقيت على الزمن ولم تنقض بانقضاء ايامها فى عصر الميلاد : رجل ينشأ فى بيت نجار فى قرية خاملة بين شعب مقهور ، يفتح بالكلمة دولا تضيع فى أطوائها دولة الرومان ولا ينقضى عليه من الزمن فى انجاز هذه الفتوح ما قضاه الجبابرة فى ضم اقليم واحد ، قد يخضع الى حين ثم يتمرد ويخلع النير ، ولا يخضع كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والاحساء

الباب الرابع
الختام

عنى الشراح الانجيليون عناية دقيقة مضنية بترتيب الحوادث في سيرة السيد المسيح عليه السلام كما تستمد من روايات الاناجيل ، ولكنهم لم يصلوا الى ترتيب متفق عليه ، لان سياق الحوادث مختلف في الاناجيل الاربعة ، وبعض الاناجيل قد سجلت ماسمعه كتابها في اوقات متفرقة حسبما عرض لهم من مناسبات الرواية لا حسب تسلسل الازمنة التي وقعت فيها الحوادث ، فلم يتفق ترتيب الكتابة وترتيب الحدوث .

على أن حوادث السيرة فيها ما يظهر منه انه مقدمات وما يظهر منه انه نتائج لاحقة لتلك المقدمات ، فاذا حسبنا بعضها نتيجة لبعض على حسب المعقول من آثار الحوادث ، أمكن على الترجيح متابعة السيرة المسيحية في خطوطها الكبرى ، ولا يضيرنا بعد استقامة هذه الخطوط ان تختلف اوضاع الحوادث التي يمكن ان تضاف الى كل فترة دون ان يتغير سياق السيرة كله او يتغير جوهر الموضوع الذي تدور الحوادث عليه .

كان لقاء المسيح ليوحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية .

ولم تذكر لنا الاناجيل من اخبار نشأة المسيح عليه السلام قبل ذلك اللقاء غير حادثتين اثنتين ، احداهما حادثة السفر الى مصر وهو رضيع ، والاخرى حادثة السفر الى بيت المقدس وهو في الثانية عشرة من عمره .

روى الحادثة الاولى انجيل متى فقال ان « ملاك الرب ظهر ليوسف في حلم قائلا : قم وخذ الصبي وامه واهرب الى مصر ... لان هيرود مزمع ان يطلب الصبي ليهلكه ، فقام واخذ الصبي وامه ليلا وانصرف الى مصر ، وبقي فيها الى وفاة هيرود » ثم

قال : « وقتل هيرودس جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وتخومها من ابن سنتين فمادونهما » .

ولم يذكر خبر هذه المذبحة فى غير انجيل متى ، ولا يعرف الآن سبب وجود الاسرة فى بيت لحم - وهى من الناصرة - لان الاحصاء الذى اشار اليه انجيل لوقا وقال انه سبب انتقال كل أسرة الى منبتها قد تقرر فى السنة السادسة للميلاد وحدثت من جرائه ثورة عنيفة على عهد والى سورية كرينيوس .

أما الانجيل الذى توسع فى وصف طفولة السيد المسيح فهو انجيل لوقا الذى روى اخبار ختانه وتسميته والسفر به الى بيت المقدس : « فلما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبى سمى يسوع ... » وتمت أيام التطهير حسب الشريعة الموسوية « فصعدوا به الى اورشليم ليقدموه للعرب ... ويقدموا ذبيحة زوج يمام أو فرخى حمام » وهى القربان المقبول من الفقراء .

قال انجيل لوقا : « وكان ابواه يذهبان كل سنة الى اورشليم فى عيد الفصح ، فلما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا الى اورشليم كعادة العيد ، وبقى الصبى عند رجوعهما فى اورشليم ويوسف وامه لا يعلمان . واذ ظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الاقرباء والمعارف ، ولما لم يجداه رجعا الى اورشليم يطلبانه ، فوجداه بعد ثلاثة ايام فى الهيكل جالسا فى وسط المعلمين يسمعهم ويسالهم ، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه واجوبته ، فلما ابصراه دهشا وقالت له امه : يابنى . لماذا فعلت بنا هكذا . . . فقال لها : « لماذا كنتما تطلباننى ؟ الم تعلما حيث ينبغى أن اكون فيما لابى » . فلم يفهما الكلام الذى قاله لهما ، ثم نزل معهما وجاء الى الناصرة وكان خاضعا لهما

... وكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عندالله والناس»

ولا يذكر الانجيل شيئا عن نشأة الصبى بعد ذلك الى ان بلغ الثلاثين وظهر يوحنا « بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا » وحينئذ جاء يسوع من الجليل الى الاردن ليعتمد منه - كما ورد فى انجيل متى - فمنعه يوحنا قائلا : انا محتاج ان اعتمد منك وانت تأتى الى ؟ فأجابه يسوع تسمح الآن ، لانه هكذا يجمل بنا ان نستوفى كل بر . فسمح له ، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء ، واذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه ، وصوت من السماوات يقول : هذا هو ابنى الحبيب » .

وفى انجيل غير الاناجيل الاربعة المعتمدة - وهو انجيل العبريين - رواية عن هذه الفترة من سيرته عليه السلام جاء فيها ان امه واخوته قالوا له ان يوحنا المعمدان يوالى التعميد لغفران الخطايا فهلم بنا اليه ليعمدنا . فقال لهم : « اى خطيئة جنيت حتى اذهب اليه لتعميدى ! اللهم الا ان يكون هذا القول الذى قلت » .

وليس فى الاناجيل ولا فى غيرها خبر عن تعليم السيد المسيح فى طفولته قبل الثانية عشرة وبعدها ، ولكنه بالقياس الى نظام التربية فى ذلك العصر يبدأ فى مكتب ملحق بالبيعة فى كل قرية كبيرة يشرف على بيعتها « حزان » أو « خزان » بمعنى الخازن والحارس ، وينذر فى المكتب حصول التلاميذ على النسخ المخطوطة من الكتب الدينية غير نسخة البيعة المعدة للتلاوة منها فى الصلوات وللاستعانة بها على تعليم التلاميذ الصغار ، ومعولهم جميعا على الحفظ والاستظهار .

لقد كانت كل اسرة يهودية تتمنى فى ذلك العصر ان يخرج منها

المسيح المنتظر ، وقد سمى الطفل يسوع أو « يهوشع » على هذا الامل ، لان الاسم مركب من كلمتين تفيدان معنى سعى « يهوا » او نجدة « يهوا » اوخلاص « يهوا » فتربى الطفل تربية دينية خالصة ، ولايصعب علينا تعليل سفر الاسرة الى بيت لحم عند مولده ، لانها تنتظر المعجزة هناك ، حيث ورد فى اسفار من النبوءات أن بيت لحم هى مولد المسيح الموعود ، لانها موطن داود .

ولا يبعد أن الصبى المبارك ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، قد وعى جميع الدروس التى يتعلمها الصغار فى مدارس القرى واستمع الى شىء جديد من فقهاء الهيكل واحباره ، فتاقت نفسه الى استيعابه ونسى أهله وموعد عودتهم الى قريتهم وهو يتنقل بين دروس الفقهاء والاحبار .

ويغلب على الظن انه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان وأن يوحنا قد رآه وعرفه وعرف فضله وطهارة سيرته قبل ان يلقاه فى الاردن عندما تصدى لرسالة التعميد ، وهى بطبيعتها رسالة اعداد وتمهيد .

ومن البديهى ان كلمات يوحنا الفتى ابن الثلاثين فى ساعة التعميد لم تذهب بغير صداها فى نفسه الواعية ، فمن ايسر آثارها فى مثل تلك النفس أن تعزز فيها الامل وتدعم فيها اليقين وتبعثها على التأمل فيما خلقت له وفيما ترجوه ويرجى منها بين البشائر والنذر التى ترددت يومئذ فى كل مكان ، وعلى كل لسان .

وخلوة البرية هى احدى نتائج تلك التجربة النبوية ، وهى خلوة التجربة والامتحان والتساؤل والاستيثاق التى عالجها كل

نبى قبل أن يصدع بما أمر به ،وقبل أن يستيقن أن ما أمر به من عند الله .

ونعتمد فى وصف هذه التجربة على رواية انجيل متى حيث يقول : « انه عليه السلام بعد ان صام فى البرية اربعين نهارا واربعين ليلة جاع اخيرا فتقدم اليه المجرب وقال له : ان كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تصير خبزا. فاجابه : مكتوب انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكلمة تخرج من فم الله . ثم اخذه ابليس الى المدينة المقدسة واوقفه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من عل ، لانك موعود ان يوصى ملائكته بك ليحملوك على ايديهم فلا تصطدم رجلك بحجر . قال يسوع . ومكتوب ايضا الا تجرب الرب الهك . ثم اخذه ابليس الى جبل عال وقال له اعطيك هذه جميعها ان سجدت لى .. قال يسوع :اعزب عنى ايها الشيطان ، فانه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد .. » .

قال انجيل متى بعد ذلك :ولما سمع يسوع ان يوحنا اسلم لهيرود انصرف الى الجليل وترك الناصرة وسكن فى كفر ناحوم ، وبدا رسالته داعيا الى التوبة ،لانه قد اقترب ملكوت السماوات

كان لقاء يوحنا المعمدان مفرق الطريق فى السيرة المسيحية كما اسلفنا ، فكانت سيرة الفتى المؤمن قبل ذلك اللقاء تأهبا واستعدادا واملا ، وكانت سيرته بعد اللقاء رياضة وامتحانا وعزيمة ، وردته كلمات النبى النذير الى طويته يسبر اغوارها ويمتحن صبرها ويسائلها ويسائل الغيب ليهديه الى كنه رسالته ومصدر بعثته ، وتوسوس له التجربة ان يطلب الآية ويلمس الدليل ، وكل تجربة من هذه التجارب التى مثلتها بساطة الرواية الانجيلية تدور على سر الرسالة المسيحية وما احاط بها

فى كتب القدامى من البشائر والمواعيد : الم يكن رجاء الناس من المسيح الذى ينتظرونه ان يعم الخير ويبطل العناء فى طلب الارزاق ويصبح الخبز لقى لمن يطلبه كحجارة الطريق ؟ الم يكن من مواعيد المسيح ان يقبل على السحاب محمولا على اجنحة الملائكة ؟ الم يكن من مواعيده ملك العالم بالتاج والصولجان ؟ ... كل تجربة من هذه التجارب كانت هى التجربة التى تساور ضميرا مشغولا بالرسالات المسيحية ، واقفا على قمة الايمان وشفا الهاوية فى لحظة واحدة ، تغريه من هنا رسالة جسد وسلطان ومساومة على البراهين والآيات ، وتعصمه من هنا رسالة روح وقداسة ويقين لا يساوم على البرهان .

اتكون كلمات يوحنا للمسيح اول وحى نبوى بالرسالة المسيحية ؟

واضح غاية الوضوح ان هذه الكلمات الحية لم تطرق مسامعه الا وقد فتحت فى نفسه الصافية بابا للتأمل والتساؤل ، وان فترة الخلوة فى البرية على اثر ذلك كانت فترة اعتكاف لاستخلاص الحقيقة من اعماق الضمير والاستعانة بالصيام والتهجد على مناجاة الغيب والاستقرار على عزيمة خالصة للاقدام على خطوة حاسمة يريدها الله ويبطل فيها الابهام والاحجام .

وعندنا ان انفس خبر يعين على التعريف بمنهاج الايمان فى نفس الرسول العظيم هو هذا الخبر عن تجربة الوحدة فى البرية ، فهو يفسر لنا مواقف السيد المسيح جميعا قبل الاقدام على خطواته الحاسمة ، او يفسر لنا منهاج الايمان بدواعى العمل فى ضميره السليم .

انه اذا اقدم على امر من الامور الحاسمة اطال التفكير فيه ، ولم يزل يطيل التفكير فيه ويقلب وجوه الروية والمراجعة حتى

يخطر له ان العمل مرهون بانتظار آية يستوثق بها من ارادة الله ، وعندئذ يبادر الى نبذ هذا الخاطر بغير هوادة ، لان العامل الذى يتوقف عمله على انتظار آية ضعيف الايمان ، ومن كان قوام نفسه ان مثقال حبة خردل من الايمان ينقل الجبل من مكانه ويخلع الشجر من منبته فلن يكون ايمانه معتمدا على آية يراها قبل ان يعمل عمله ويتجرد لمقصده ، وبخاصة حين يبدو للنفس ان الآية منتظرة لاتقاء الخطر وضمان الامان . فالخطر اذن احب من الشك ، وكل شيء اذن اسلم من الامان الذى لا يأتى الا بضمان من البرهان .

وكلما بلغ السيد المسيح من تفكيره ورويته هذا الحد الفاصل فمنهاجه الجدير به هو استخارة الحوادث واستلهام الغيب من هذا الطريق . . . ليفعل مايتوقاه ولا يشترط شرطا للوقاية ، وليفعل الله ما يشاء ، فما يجرى بعد ذلك كله هو ارادة الله .

خرج السيد المسيح من العزلة الى الرسالة ، ولم يقل لاحد انها رسالة مسيح ، بل سكت عن ذلك حتى تسامع الناس بدعوته واصبح له اكثر من ثمانين تلميذا يبشرون برسالته ويستمدون الهداية من وحيه .

واصطبغت رسالته الاولى فى الجليل بصبغة مميزة وهى صبغة الرسالة القومية الى اسرائيل ، وحرص عليه السلام اشد الحرص الا يثير الناس على السلطان الحاكم ولا يثير السلطان الحاكم عليه ، فكان يؤثر المباعدة والتقية ما استطاع ، حتى بلغ الكتاب اجله وآن ان يمضى فى خطوة اخرى بعد الخطوة الاولى التى انتقل بها من العزلة الى الدعوة بين بنى اسرائيل ، فهذه الخطوة التالية هى الدعوة الانسانية العامة وهى استخارة للحوادث واستلهام للغيب فى ميدان أوسع وابقى ،

وعلى الصفة التى ثبتت له فى طوية ضميره وهداه اليها وحى الله ، ولم يبق الا ان تؤيدها حوادث القدر كيف شاء .

اما الصفة التى ثبتت له عليه السلام فى طوية ضميره فقد تكررت فى كلامه عن نفسه على صور شتى ، فهو نور العالم وخبز الحياة ، والكرامة الحقيقية ، وهو ابن الله وابن الانسان .

والابوة الالهية قد وردت فى مواضع متعددة من كتب الانبياء فجاء فى سفر التكوين ان الملائكة ابناء الله « وان ابناء الله راوا بنات الناس حسنات فاتخذوا منهن زوجات (٦ تكوين) »

وورد فى كلام موسى عليه السلام ان بنى اسرائيل جميعا ابناء الله حين قال لفرعون « دع ابنى يخرج » ووردت بهذا المعنى فى كتب اخرى كسفر التثنية حيث جاء فيه « انتم ابناء الله » (تثنية ١٤) واشير الى الشعب كله بانهم ابناؤه وبناته (٣٢ تثنية) ... ووردت كذلك غير مرة فى المزامير حيث قيل « قدموا للرب يا ابناء الله » (٢٩) و « من يشبه الرب بين ابناء الله » (٨٩) .

وكذلك وردت فى هوشع وجاء فيه من خطاب الشعب « انتم ابناء الله الحى » .

اما فى العهد الجديد فمخاطبة الله باسم الاب وردت فى الصلاة التى تبتدىء بدعاء الله « ابانا الذى فى السماوات » وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ ان « اباكم واحد هو الذى فى السماوات » وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد ، وكل ولادة للروح فهى بنوة لله .

اما ابن الانسان فقد وردت فى كتب العهد القديم باللغة الارامية وباللغة العبرية ، وهى بالارامية « بارناشا » من بار بمعنى ابن وناش بمعنى انسان ، وهى بالعبرية « ابن آدم » وتطلق فى

كلتا اللفتين على الانسان الخالص او على الانسان من حيث هو نوع يقابل انواع الاحياء .

وقد وردت تسعين مرة فى سفر حزقيال حيث يخاطب « يهوا » ذلك الرسول فينـاديه بابن الانسان .

ووردت مرة فى سفر دنيال بلسان جبريل وهو يخاطب النبى باسم ابن الانسان (٨)

ووردت فى هذا السفر باللغة الارامية حيث يتكلم عن مخلوقات بصور الحيوانات ثم ينبىء عن رسول يأتى فى صورة انسان رآه النبى فى رؤى الليل « على سحاب كابن انسان » جاء بسلطان لن يزول .

اما فى كتب العهد الجديد فقد وردت فى مواضع بمعنى « الانسان » ومنها قول السيد المسيح فى انجيل متى « كل خطيئة وتجديف يغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الانسان يغفر له ، واما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآتى » (١٢)

وقد جاءت احيانا مرادفة لضمير المتكلم « انا » حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه ، فجاء فى لوقا ١٢ ... « كل من اعترف بى قدام الناس يعترف به ابن الانسان قدام ملائكة الله » وجاء فى متى ١٠ « كل من يعترف بى قدام الناس اعترف انا ايضا به قدام ابى الذى فى السماوات » .

وورد فى متى ١٦ « انه لما جاء يسوع الى نواحى قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس انى انا ابن الانسان؟ »

وورد فى مرقس ٨ « ثم خرج يسوع وتلاميذه الى قرى قيصرية فيلبس وفى الطريق سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس انى انا ؟ »

فهى فى بعض الاناجيل مرادفة او بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه ، ولابد ان يلاحظ هنا ان التلاميذ قد عرفوا استخدامها فى هذا السياق فلم ينادوا السيد المسيح قط باسم ابن الانسان .

وقد وردت حينا بمعنى يشبه معناها فى نبوءة دنيال حيث قال « كما يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون فى انقضاء العالم ، يرسل ابن الانسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر والاثمين » متى (١٣)

وهى اشارة كاشارة دنيال الى يوم الدينونة ، وصيغتها بالآرامية واحدة فى الموضعين .

هذه هى الاسماء التى تسمى بها السيد المسيح فى ابان دعوته الاولى او عند نهايتها ، وفى اثناء هذه الدعوة كان يدعى بالمعلم الصالح احيانا فيقول : « لماذا تدعونى صالحا ؟ ليس احدا صالحا الا واحد ، وهو الله » .

وعند نهايتها سأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه ، فلما قال له بطرس انك انت المسيح ابن الله باركه ثم أمرهم بالكتمان

وغنى عن القول ان هذه الاسماء انما كانت تفهم كما تعود قراء الكتب الدينية ان يفهموها فى ذلك الحين ، ولم يوص السيد المسيح تلاميذه ان يفهموا منها غير ذلك حين يذكرون « ابن الله » او « ابن الانسان »

***

لو جرت الامور فى مجراها الذى استقامت عليه الدعوة فى الجليل من بعد الرسالة المسيحية لمضت هذه الرسالة فى طريقها سنوات دون ان تشتبك فى حرب صراح مع دولة الكهانة فى بيت المقدس

ولكن الحوادث حكمت حكمها فى السنة التى تحسب الآن سنة ثلاثين للميلاد ، وحان موعد عيد الفصح وزيارة بيت المقدس كما جرت عادة الاسر اليهودية، ومنها اسرة السيد المسيح : أمه واخوته وذوو قرباه

وكان عليه السلام يجارى اسرته فى هذه الشعائر التى لا ضير فيها ، ولم يكن يضيق على الناس فى المحافظة على المأثورات التى تعودوا ان يحتفلوا بها ويفرحوا فيها بالاجتماع وتبادل التهنئات ، وانما كان ينكر من المأثورات ما كان فيه حجر على الضمائر او مفاخرة بالتقوى الكاذبة والتفاق المكشوف، وفيما عدا هذا كان يشارك اسرته فى افراحها القومية ويذهب الى الهيكل ويأمر بشراء القربان ، بل يأمر بسداد الفرضة التى كانت تفرض على كل راس من رؤوس بنى اسرائيل

وفى سنوات مضت زار بيت المقدس ولم يذكر قط انه تخلف عنه فى احدى السنوات منذ بشر برسالته فى الجليل ، وكان يذهب مع اصحابه القلائل ثم يعود الى الجليل دون ان يحس زيارتهم سدنة الهيكل وذوو الشأن فى العاصمة الدينية ، ودون ان يشتبك الفريقان فى نضال

لكن كيف يكون الذهاب الى بيت المقدس فى هذه السنة ؟

انه لا يذهب الى العاصمة هو واصحابه كما كانوا يذهبون فى السنوات الماضية

انهم يعدون الآن بالالوف فى انحاء الجليل ، واذا قدرنا ان نيفا وثمانين مسيحيا يعدون من التلاميذ فالمسيحيون الذين لا يعدون منهم قد يبلغون عشرة أضعاف هذا العدد او يزيدون

فكيف يذهب هؤلاء المئات مع معلمهم الى بيت المقدس خفية يتسللون اليها ولا يعلنون ولاءهم للمعلم الذى يحج معهم الى المدينة ؟ ولماذا هذا التسلل وهذا الاختفاء ؟

هنا موقف من المواقف التى نسميها مواقف استلهام الغيب واستخارة الحوادث

أيذهب الى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والاتباع منكرا لرسالته حذرا من اعلانها مع هذا الجمع الذى لايسهل معه التخفى والاستتار

وماذا يقع من أثر التخفى والاستتار فى نفوس المؤمنين برسالته الروحية ان لم نقل برسالته المسيحية ؟

أيؤمن أحد منهم أن رسالة روحية أو مسيحية تعم العالم فى الخفاء ، وتستتر لسبب من الاسباب ، فضلا عن السبب الذى يسبق الى الاذهان لأول مرحلة ، وهو الحذر والاتقاء !

وجب الذهاب الى بيت المقدس ووجبت العلانية ولا محيد عن الواجبين ، ولتكن الآية الالهية ما تسفر عنه الحوادث بعد حين

وأدل شىء على أن الموقف الاخير فى الرسالة المسيحية كان على منهاج السيد المسيح فى أمثال هذه المواقف ـ موقف استخارة الحوادث ـ انه عليه السلام سهر ليلة الوداع يصلى ويناجى ربه قائلا : « اعبر عنى هذه الكأس يا أبتاه .. كما تريد أنت لا كما أريد » .. ثم أيقظ تلاميذه النيام وقال لهم : « اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة . أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف »

وقد أعد عدته لمواجهة أعدائه حيث لابد أن يواجهوه ، وأعد العدة لاستبقاء عزيمة تلاميذه ، فطفق يهيىء أذهانهم لاحتمال ما يلاقونه من بلاء ، وصرف عن أذهانهم أنها غزوة فتح تنجلى عن غلبة عاجلة على دولة الكهانة الدنيوية ، فليوطنوا أنفسهم اذن على أسوا مايكون ، بل لا ييأسوا اذا غلبهم الضعف فتفرقوا عنه ، ولا يخامرهم الظن أنهم اذن قد خسروا المعركة وانهزموا هزيمة

الضياع ، فهذا الضعف مقدور يتبعه لا محالة نصر قريب

وتروى الاناجيل أنه عليه السلام دخل الى بيت المقدس على ظهر اتان كما جاء فى بعض النبوءات عن مركب المسيح الموعود ، وأنهم كانوا يحملون السعف أمامه ويفرشون ثيابهم تحت أرجل مطيته ، ويهتفون بهتاف النصر الذى يحفظه اليهود منذ الطفولة ، ويتغنون به فى المواكب والمحافل لذكرى داود ، وذكرى مجده المستعاد الى آخر الزمان

ويفهم من وصايا السيد المسيح أنه ظل فى بيت المقدس يرعى للكهان والفقهاء مكانتهم ولا يقلقهم على ما هم حريصون عليه من حقوقها ودعاواها ، ففى احدى هذه الوصايا يقول مخاطبا الجموع والتلاميذ : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب اعمالهم لا تعملوا لانهم يقولون ولا يفعلون »

ولم تسمع منه فى رواية الاناجيل كلمة واحدة يغير بها ما اختطه لنفسه فى حكمته المأثورة عما لقيصر وما لله ، فكل ما سمع منه فى بيت المقدس يعيد ما أسلفه من بيان الملكوت الذى يدعو اليه ، وانه من غير هذا العالم ، ولا شأن له بسلطان التيجان والعروش

***

الا أنه من اللحظة الاولى فى بيت المقدس لمس مكامن الاشراك التى ترصد له فى كل خطوة ، وعرف من الاسئلة التى كانت تنهال عليه أن القوم يأتمرون به لاهلاكه ، اذ كانت هذه الاسئلة جميعا تنزع الى هدف واحد وهو استدراجه الى كلمة تثبت العصيان والتمرد على الدولة أو كلمة تثبت « الكفر » ونقض الشريعة ، وكانت أجوبته كلها على ما تعودوه فى مواضع العنت والاحراج

تستند الى حجته وتستقيم مع غايته ورسالته وتخجل من يحاول احراجه وتهتك ما يستره من حجب الرياء ، ولا يبعد أنه قد سمع من بعض رؤساء الهيكل تفصيل المؤامرة المحبوكة ، لان أحدهم وهو — نيقوديموس — كان يزوره ليلا ، ولعله واحد من كثيرين .

ثم حدث ما لابد أن يحدث في عيد كذلك العيد ، بين اناس متنمرين وأناس متجردين لدعوة جديدة يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها ، فاشتبك السيد المسيح وسماسرة الهيكل في معركة أدبية لم تلبث ان انقلبت الى معركة يدوية ، فقلب عليه السلام موائد الصيارفة وباعة الضحايا وصاح بهم وبسماسرة الهيكل يذكرهم أنهم في بيت الله ، وأنهم نقلوه من معبد صلاة وطهارة الى مغارة لصوص

وكانت هذه هي الوقعة الفاصلة على ما يظهر ، وربما سعى اليها السيد المسيح تقريرا للموقف على وجه من الوجوه ، فامتلأت الصدور الموغرة واتخذت من درء الفتنة ذريعة الى العمل العاجل ، وبدأ العمل على النحو الذي تفرقت فيه أقوال النقلة والرواة

وهنا ينتهي دور التاريخ ويبدأ دور العقيدة

فليس للتاريخ كلمة راسخة في خبر من الاخبار التي أعقبت حادثة الهيكل وحركت كهانه للبطش والنكاية

ففي حادثة الاعتقال لا يدري متتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه ، وهل كان معروفا من زياراته للهيكل أو كان مجهولا لا يهتدى اليه بغير دليل

وفي حادثة المحاكمة يجري الخبر على أنه حوكم بالليل وصدر الحكم في يوم واحد ، ويجري نظام القضاء الموسوى على تحريم المحاكمة الليلية واسقاط كل حكم يصدر في قضايا الدم بعد

جلسة واحدة فى يوم واحد ، ولا ينفذ الحكم فى هذه القضايا الا اذا صدر بالاجماع

وفى حادثة التنفيذ يجرى الخبر على أنه قد تم على الرغم من اعلان الحاكم الرومانى براءة المحكوم عليه ، ويقول انجيل يو حنا أن تسليمه للتنفيذ كان فى نحو الساعة السادسة ، ويقول انجيل مرقس أنها كانت الساعة الثالثة فصلبوه »

وقد بحث الاستاذ ريشارد هزباند Husband فى كتابه « محاكمة المسيح » تواريخ عيد الفصح فى خمس سنوات من سنة سبع وعشرين الى سنة ثلاث وثلاثين ، فتبين أنه كان يوم خميس سنة ثلاثين وكان يوم جمعة سنة ثلاث وثلاثين ، والاخبار تجرى على أن المحاكمة والصلب حدثا يوم جمعة وأن تناول عشاء الفصح كان مساء خميس ويوافق السادس من شهر أبريل . أما السنوات الاخرى غير سنتى ثلاثين وثلاث وثلاثين فقد جاء العيد فيها يوم الاربعاء سنة سبع وعشرين ويوم الاثنين سنة ثمان وعشرين ويوم الاحد سنة تسع وعشرين ويوم الثلاثاء سنة احدى وثلاثين ويوم الاثنين سنة اثنتين وثلاثين

ومن الاخبار عن يوم التنفيذ أن الارض زلزلت وأن القبور تفتحت وخرج منها القديسون فتح فى اليوم التالى فلم توجد وروى نقلة الاخبار أن القبر يمشون بين الناس فيه جثة ، وأن السيد المسيح ظهر للتلاميذ مرات وقال لهم لما توهموا انه طيف « جسونى وانظروا فان الروح ليس له لحم وعظام » ... « وسالهم اعندكم هنا طعام ؟ فناولوه جزءا من سمك مشوى وشيئا من شهد عسل فاخذ واكل » ٢٤ لوقا

وقد تناول هذا الموضوع طائفة من اقطاب العلم واللاهوت كالقس شاين الانجيلى Cheyne والاستاذ هنريك بولس Poulus استاذ اللغات الشرقية بجامعة جنيا والدكتور ويجال المختص

بالدراسات الاثرية فى مصر والشرق الادنى والدكتور هوجو تول Toll السويدى وغيرهم من علماء الدين والدراسات التاريخية فانتهوا الى التفرقة فى اخبار هذه الفترة بين وجهة التاريخ ووجهة الاعتقاد

ومن الاخبار التاريخية خبر لا يصح اغفاله فى هذا الصدد ، لانه محل نظر كبير ، وهو خبر الضريح الذى يوجد فى طريق « خان يار » بعاصمة كشمير ويسمونه هناك ضريح النبى او ضريح عيسى ، وروى تاريخ الاعظمى الذى دون قبل مائتى سنة ان الضريح لنبى « اسمه عوس آصاف » ويتناقل اهل كشمير عن آبائهم انه قدم الى هذه البلاد قبل الفى سنة ، وينقل المولوى محمد على فى ترجمته للقرآن الكريم عن كتاب عربى يسمى « اكمال الدين » محفوظ من الف سنة ان اسم « عوس آصاف » مذكور فيه وانه قال عنه انه رحالة ساح فى بلاد كثيرة ، وان كتاب « برلام ديوشافاط » فى صفحة (١١١) يذكر عن عوس آصاف انه صاحب « بشرى » وانهم يحفظون مثلا من امثاله فى تعليمه يشبه مثل السيد المسيح عن الزارع والبذور

ولقد اورد المولوى محمد على هذا التعليق فى تفسير الآية الكريمة : « وجعلنا ابن مريم وامه آية واويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » واورد تعليقا يقرب منه فى تفسير قوله تعالى « انى متوفيك ورافعك الى » وغيرهما من الآيات القرآنية التى تناولت حياة عيسى بن مريم عليه السلام

***

وبعد فهذا الكتاب مقصور على غرض واحد وهو جلاء العبقرية المسيحية فى صورة عصرية ، نفهمها الآن كما نفهم

العبقريات على اقدارها واسرارها وقد قل فيها نظير هذه العبقرية العالية فى تواريخ الازمان قاطبة ولا يزال هذا الغرض المجيد متسعا للتوفية والتجلية من نواح عدة ، فان كتب لنا ان نوفق لزيادة شيء الى هذه الذخيرة القدسية ، فذلك حسبنا وكفى ، ولا حاجة بنا فى هذه الصفحات الى اثارة الجدل فى مسائل لا ترتبط بالمقصد الذى قصدناه وقصرنا الرسالة عليه

ولا نستطيع كما اسلفنا ان نقرر على وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية ، ولكننا نستطيع ان نقرر على وجه التحقيق انها انتهت فى موعدها حيث اسلمها التاريخ الينا ، فقد كان ذلك الجيل آخر جيل قامت فيه دولة العصبية الدينية التى تحتكر هداية الله ورحمته لسلالة واحدة من ابناء آدم وحواء ، واول جيل عمت فيه الدعوة الى هداية الهية تحيط بكل من يهتدى من بنى الانسان ، فلم تنقض اربعون سنة حتى تداعت دياثة الاثرة العصبية وتداعى الهيكل الذى اعتصمت به وتجددت فيه ، ثم قامت للضمير الانسانى دعوة حية تبسط نورها كما ينبسط نور الشمس لكل ناظر وكل متطلع ، ولحكمة ما الهم داعيها ان يتسمى كلما تكلم عن نفسه بابن الانسان

الغاية بعد كل ختام

فى احدى روايات الكاتب الروسى العظيم ـ دستيفسكى ـ بطل من ابطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد الى الارض فى طوفة عابرة ونزل باشبيلية فى ابان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات واقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة

وانه ليمضى بين الشعب يضفى عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم اذا برئيس ديوان التفتيش ـ المفتش الاعظم ـ يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير الى الحراس ويأمرهم ان يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء فى انتظار التحقيق

ويأتى المساء فيذهب المفتش الاعظم الى الحجرة ويقول للرسول الكريم : اننى اعرفك ولا اجهلك، ولهذا حبستك ، لماذا جئت الى هنا ؟ لماذا تعوقنا وتلقى العثرات والعقبات فى سبيلنا ؟

ثم يقول له فيما يقول : انك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة . كلفتهم حرية الضمير ، كلفتهم مؤنة التمييز ، كلفتهم ان يعرفوا الخير والشر لانفسهم ، كلفتهم اوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم ... والآن وقد عرفنا نحن داءهم واعفيناهم من ذلك التكليف ، واعدناهم الى الشرائع والشعائر ، تعود الينا الناخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الاختيار وحرية الضمير ؟

ليس اثقل على الانسان من حمل الحرية ، وليس اسعد منه حين يخف عنه محملها وينقاد طائعا لمن يسلبه الحرية ويوهمه فى الوقت نفسه انه قد اطلقها له وفوض اليه الامر فى اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الانسان من جديد ان يفتح عينيه وان

يتطلع الى المعرفة وان يختار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟

انك منحتنا السلطان قديما وليس لك ان تسترده ، وليس في عزمنا ان ننزل عنه ، فدع هذا الانسان لنا وارجع من حيث اتيت ، والا اسلمناك لهذا الانسان غدا وسلطناه عليك وحاسبناك بآياتك واخذناك بمعجزاتك ، ولترين غدا هذا الشعب الذى لثم قدميك اليوم مقبلا علينا مبتهلا لنا ان نخلصه منك وان ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين

قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التى تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار : ان السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو ازورار ، وتقدم الى المفتش الاعظم - وهو شيخ فان فى التسعين - فلثم شفتيه وخرج الى ظلام المدينة وغاب عن الانظار

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم فى خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الآخر الذى يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم

ولا نحسب أن الخيال فى هذا الخطاب العجيب بعيد من الحقيقة ولا نستبعد ماقاله المفتش الاعظم حين أنذر الرسول الكريم أن يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب ، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسل اليه

كلا . ان الخيال فى ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة وأقرب شىء الى طبائع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يتبعوا المفتش الاعظم فى نقمته على الرسول الكريم

وأقرب شىء أن يكون ، لو عاد السيد المسيح الى الارض ، أن ينكر الكثير مما يعمل اليوم باسمه وان يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين

ينعى عليهم الرياء ويعلمهم من جديد أن السبت للانسان وليس الانسان للسبت ، وأن العبرة بما في الضمائر لا بما تفوه به الالسن ويبدو على الوجوه ، وأن الوحي الحي في طوية الانسان لا في طوايا الكتب والاوراق

أقرب شيء أن يكون أن ينعى على الناس ما نعاه قبل الف وتسعمائة سنة، وان يجد انسان اليوم كانسان الامس في شروره وعداوته ، وفي نفاقه وشقاقه ،وفي اعراضه عن اللباب واقباله على القشور ، وفي استعلائه بالتقوى حين يتقي ، ولجاجه في الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدي ، خمرا جديدة في زق قديم .

ذلك أقرب شيء أن يكون

وأقرب شيء أن يقال اذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ، ان يردد اللسان قول ابي العلاء :

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدي الى غناء اجتهاد

ففيم يشقى المصلحون ، وفيم يهلك الشهداء ؟ وفيم يأتي الانبياء ويذهبون ؟ وفيم اختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون؟ فيم كل هذا ؟ فيم جاءهم رسول بعد رسول ؟ وفيم توالى التابعون بعدهم باحسان أو بغير احسان

جاءوا وعادوا

وانصرفوا والبلاء باق ولم يزل داؤنا العياء

لئن قيل هذا ليكونن أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التي جاءت في صورة الخيال

ولكن الحقيقة الكبرى التي توزن بها جميع الحقائق هي أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد، ولا سيما الحقيقة التي تخلد على الزمن في أطوار الانسان منذ كان ، وتخلد معه أني يكون

ليست حرية الضمير مطلبا محدود المسافة ، يرحل اليه الانسان ، ثم يصل اليه ويقعد عنه ، ويكف بعده عن كل عناء

انما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب ، يتقدم فيه الانسان شوطا بعد شوط ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوما الا لينظر بعده الى جهاد مستانف ولا يودع الشر فى مرحلة من مراحله الا ليلقاه ويجاهده ، ولن يلقاه فى سلام

ومطالبنا المحسوسة تهدينا الى القياس الصحيح فى هذه المشكلة ، وهى أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التى تعتلج بالضمير وتبتعثه الى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات

منذا يقول ان عناء التعليم باطل اذا راى الطفل يحمل الكتاب وهو فى الخامسة ، ورآه يحمله وهو فى العاشرة ، ورآه يحمله وهو فى العشرين ثم فى الثلاثين ، ثم رآه مدى الحياة لايستغنى عن علم ولا يقضى على الجهل كل القضاء

منذا يقول ان عناء الطب باطل اذا راى الناس يمرضون بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنانهم فى الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء

منذا يقول ان الغاية عبث لأن الطريق اليها طويل ، أو لأنها غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟

لانقول هذا فى محسوساتنا التى نلمحها ونلمسها ، فهل نقوله فى غاية كحرية الضمير هى سر الاسرار فى حياة الانسان منذ كان وأنى يكون ؟

ليست العبرة ان الشر واقع ولكن العبرة كيف ننظر اليه وكيف نواقعه أو كيف نتقيه

واذا وقع اثنان فى الشر ، فليس الذى وقع فيه وهو

مستريح اليه مستزيد منه ، كالذى وقع فيه وهو مضطر اليه نادم عليه ، وليس الذى وقع فيه وهو يعلمه كالذى وقع فيه وهو يجهله ، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والاضطرار

انما الانسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير ، وانما يقاس ضمير الانسان بالقيم التى يقومها والمثل العليا التى يتمثلها ، والمطالب التى يطلبها وينالها أو لاينالها ، ومادام المصلحون والرسل يعلمون الانسان قيمة يغليها ويرفعون أمامه مثلا أعلى يتسامى اليه .. فهم عاملون ، وعملهم لازم ، ونتيجته محققة ، وان دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الاحصاء

واذا قلنا يوما ان الانسان فى هذا العصر يطلب الخير ولايدركه ، فقد قلنا على اليقين انه أفضل من الانسان الذى كان لايطلبه ولا يعرفه وان عمله غير مطلوب وغير معروف ، كما يعمل الحيوان البهيم

انما تقاس الاديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز ، وبما تزيده من نصيب الانسان فى حرية الضمير أو فى حرية التمييز بين الحسن والقبيح ، وقد عملت الاديان كثيرا ولا تزال قادرة على العمل الكثير ، ولكنها لن تغنى الانسان يوما عن جهاد الضمير

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى فى العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء

وكان «العارفون» يقولون عن هؤلاء انهم جهلاء

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم اذا اعتقدوا ان دينا من

الاديان لم يعمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لان الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغى ، باق فيها الكفران

أى فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لاتعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة فى « الالفيه » الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب الى التقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لأنهم يفكرون وينتظرون «الالفية» . . وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير !

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيرا يصنعه ويعيد صنعه، ولصنع كثيرا بين اتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا التى يصنع فيها الهداة صنيعا كثيرا خير من الدنيا التى لاموضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير

ولن يختم المسيح العائد الى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هى شوط الضمير الذى لاختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام

وسيعلم الناس فى العصر الحديث ـ ان لم يكونوا قد علموا حتى اليوم ـ ان عقيدة الانسان شىء لايأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعى أو ممتنا عليه ، ولكنها هى ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه ، ان احتاج الى الاصلاح ، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى انه عالج نفسه لمرضاته . فالعقيدة مسألة الانسان ، لاشأن للأنبياء بها الا لأنها مسألة الانسان ، وعليه اذا عالج اصلاحه ان يعالجها كما يعالج جزءا من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها كأنها بضاعة يردها الى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من امر العقيدة الى آخر الزمان

الجيل الجديد

في عهده الجديد

انقلاب
في الصحافة

A.U.B. LIBRARY

DATE DUE

Jafet Library
05 APR 1995
JAFET LIB.
02 JUN 1999
Circulation Dept. 5
JAFET LIB.
01 APR 2003
Circulation Dept. 5

A U B LIBRARY
232.901:A655aA:c.1
العقاد ،عباس محمود
عبقرية المسيح
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01000573
232.901
A655aA